الفصل الأول

العطاء المصرى المعاصر ومسيرة التقدم

(أ) طور البناء والتشكيل الحضارى :

تتطور الحياة الأدبية والفكرية ، والاجتماعية ، والسيلسية ، وأيضاً الاقتصادية بقوة فاعلية الدفع الإنسانى ، وحركة التاريخ ، — ومعطيات الرغبة الملحة فى المحافظة على الحياة ، وقوة الرغبة الوليدة فى المستقبل وذلك فى ظل قوانين الزمن الطبيعية ، ومع ظروف اجتماعية ، وإنسانية سوية حينئذ يصبح للأجيال السابقة حق الأستاذية وللمرحلة الماضية فضل الخبرة والتجربة ، بسبب ماوصل اليه إنتاج هذه الأجيال من النضج ، والعطاء وما على من يأتى بعدهم إلا أن يواصل السير ، معتزاً بما أخذ فخوراً بما سيعطى ، أو أن يرفع راية العصيان معلنا تمرده ، منشغلا بواقعه بادئاً مسيرته من لحظة سقوط خبرات الماضى أمام رفضه وسخطه .

وفى كلتا الحالتين فإن ولاء الأجيال ، ووفاءها ، والإسهام — المشترك فيما بينها يعود إلى حركتها التاريخية الطبيعية ، وأنظمتها السياسية السليمة ، وأسلوبها الصحيح فى شتى نواحى الحياة .

أما المراحل التى تشتعل فيها الخلافات والتى تؤدى بالصراع الطبيعى بين الأجيال إلى القطيعة ، والحرب المهلكة . فإنما يكون بسبب القلق السياسى والاجتماعى الذى يسود حركتها التاريخية . وفى عالمنا العربى ، وداخل إطار الوطنية المصرية عاش المجتمع أوقاتاً عصيبة وأزمات طاحنة ، عندما لم يتهيأ لنا أن نعترف للجيل لسابق بالريادة ، والأستاذية ، وقد تسبب هذا الصدع فى تشويه صراعه الطبيعى بين أجياله فى أنحاء مختلفة ، حتى لا يتفوق فى شبابه ودائما يبدأ الحساب فى كل مرحلة . وفى مرحلتنا الحديثة سيكون على يد أفراد موهوبين — ولدوا وعاشوا فى القرن التاسع عشر ، وأفاويق القرن العشرين ليؤدوا رسالتهم فى الإحياء الشامل لجوانب الحياة المصرية والعربية السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية ، وفى مثل حالة مجتمعنا ، وأجياله المتحاربة ، ووسط مشاكل الفردية فى الحكم

والوصاية على الأمة يكون دور الفرد المصلح باهراً ، ومسئوليته عن التطور ، والتقدم واضحة لأنه يخضع لطبيعة المرحلة التى تمحو دور المجتمع ، وتلغى وجود الأمة ، وتهون من شأن الجيل ، وبالتالى تمنح الفرد حق الزعامة والقيادة على كل المستويات لكن هؤلاء الأفراد يختلفون فيما بينهم بطبيعة الميادين ، والقضايا التى يتحملون مسئولياتهم والعمل فى حلبتها ، فالفرد الحاكم إنما يسخر كل شىء فى سبيل حكمه واستمراره فى دور الحاكم ، والوصى ، والمسئول عن كل شىء أما هؤلاء الأفراد العباقرة الموهوبون ، فإنهم يسخرون عقولهم ويفنون عمرهم فى سبيل أن يفتحوا كوة نور فى جدار التخلف والخضوع والاستسلام . وفى كل الأحوال نفتقد — دائماً — الوجود الاجتماعى ، والمد الحضارى الذى يساند هؤلاء الأفراد من قبل مجتمعهم ، وأجيالهم ، حينئذ يصبحون غرباء ، وتقضى عليهم المعاصرة بالإهمال ، وبعد رحيلهم ينبت على جبين الزمن عشبهم الأخضر ، ومن هنا كان تقدم هذه المجتمعات بطيئا ، وإثراؤها لحركة التاريخ محدوداً ، وبأثر من الفرد انتقلت مصر من عصور الظلام السياسى الاستبدادى ممثلا فى النظام التركى الذى لا يخلو من إيجابيات لكن سلبياته ظلت تطل من سدف ظلام الجهل ، والتخلف ، وإفناء الشخصية المصرية .

واستقبلت مرحلة من مراحل تاريخها تحددت فيها معالم بعثها ، وإحياء دورها ، وصحوة عقلها ، ونبض احساسها ، وكان منطلق هذا يعود إلى حملة نابليون التى فجرت ينابيع العطاء لمصر وشعبها ، وأيقظتها من سباتها الطويل العميق وأوضحت لمصر أنها تعيش وشعبها فى متاهة التاريخ وأن العالم قد وضع خطاه على الطريق الصحيح ، وأن الدنيا تسير ، وأهلها واقفون غارقون فى أحلامهم .

وسواء لدى أكانت تلك الحملة عسكرية ، أم علمية ، أو كانت دوافعهـا استعمارية واستغلالا لموارد الشعوب فإن الثابت تاريخيا هو أن الشعب المصرى قد أفاد من هذه الحملة فى ميادين سياسة وعمرانية وذلك

بسبب الأحتكاك بين أنظمة الحكم ، والتخطيط العلمى للمجمع الذى أنشأه « نابليون » بمصر ، والوظيفة الحضارية التى تكفل بها هذا المجمع مما دعا بعض المؤرخين مثل الأستاذ محمد رفعت إلى القول بأن حملة نابليون على مصر كانت علمية أكثر منها حربية (١) .

ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث حكمت بنظام « ديكتاتورى مستنير » وهو نظام يتفق والمرحلة التاريخية التى ظهر فيها « محمد على » فى أعقاب الحملة الفرنسية وسقوط النظام الإقطاعى العسكرى ممثلا فى دولة المماليك، ويتفق مع خصائص « الإحياء » ، ومظهره « البيانى » فالمرحلة — تاريخيا — تمثل منحنى فى المد التاريخى المختلف الذى عاشته مصر بعد سلسلة من الإنتكاسات حلت بها بعد مرحلة القيادة السياسية والعسكرية والفكرية التى عاشتها عبر حكم « السلفيين »، و « الفاطميين »، و « الأيوبيين » وفترات الأزدهار العسكرى أيام « الطولونيين » ، — « والوطنيين المخلصين » أيام المماليك .

والمرحلة — سياسيا — لا تتطلب سوى نظام فردى يخلص لحركة التقدم التى أخذت المسئولية التاريخية للعالم العربى والإسلامى تلقيها على « مصر » وهى — فكرياً — لا تنشد سوى شد الأنظار إلى ما أحدثته عناصر الأحياء من نماذج شكلية ، ومظهرية فى مجالات الحياة ، وهى أيضاً — اجتماعيا — لا تطمح إلى أكثر من مجتمع متوازن يمثل الوعاء البشرى الجديد بكل هذه التطلعات ، والتحولات ، وتحقيق الآمال ، والطموحات الفردية وبشىء من التفصيل ، والاستفادة من الظروف المحيطة بهذه التجربة المصرية أيام « محمد على » فإنه يمكن أن يقال بأن هذه المرحلة كانت إحدى حلقات التاريخ المصرى والعربى التى تشكل مع رفيقات لها المسار الصحيح للتاريخ المصرى ولم تكن عبئاً عليه بقدر ما كانت حركة متدفقة بالأمل ،

(١) تاريخ مصر السياسى ج١ ص ٣٩ .

والعطاء ، ولا يقلل منها ما سادها من فردية متسلطة أغفلت عن عمد الدور الشعبي ، والزعامة الرشيدة التي شاركت في صنع هذا التحول من السيطرة الطبقية للمماليك إلى السيطرة الفردية لمحمد علي . لأن هذا الإغفال قد تناسب مع قوة الإخلاص والولاء للتقدم الذي ملك على « محمد علي » شعوره ، وإحساساته وآماله وكان مخلصاً حقاً ، وزعماء مصر حينئذ كانوا أكثر إخلاصاً ، لكن إخلاص الأول كان مؤسساً على خطة تنهض بمصر ، وتشكل منها قوة عسكرية تفرض على العالم « إمبراطورية » تتشابه مع النظام الإمبراطوري العالمي الذي أخذ في الظهور عصرئذ ، وتكون هذه الإمبراطورية المصرية « بجناحيها الإفريقي والأسيوي سنداً للامتداد العربي والإسلامي ، أما إخلاص الزعماء المصريين فلم يكن مؤسساً على خطة محددة أو خلفية فكرية يتحصنون بها ، كما لم يحاولوا أن يضعوا بين يدي المرحلة الصفحات المشرقة من الإسلام عقيده وشريعة وسلوكا ، مصفاة من الشوائب التي خالطت الفكر الإسلامي عبر العصور ، والأزمنة ، لهذا انفرد « محمد علي » بالحكم ، وحارب كل العناصر القيادية ، وبالذات تلك التي ساندته وقوت من مركزه السياسي ، والاجتماعي ، وقد تولد عن هذا الصراع بين « محمد علي » والزعامة الدينية والاجتماعية ، والسياسية أن اتجه النظام الفردي إلى تحديث مصر وذلك بالأخذ من الحضارة الغربية ، والاعتماد كلية على ما تفرزه تلك الحضارة من معطيات ومقولات ، مقللا من دور التراث ، واستعادة حركته القائدة إبان فترات الازدهار ، والأستاذية ، والقيادة العالمية ، وقد امتدت تلك الفترة — فترة الأخذ والانبهار بالحضارة الغربية — من استيلاء محمد علي على مصر سنة ١٨٠٥ إلى الثورة العرابية سنة ١٨٨١ ، ويعود هذا الإعجاب بالحضارة الغربية إلى ما استوعبته المرحلة أثناء احتكاكها العسكري بالحملة الفرنسية بقيادة « نابليون سنة ١٧٩٨ ، والحملة الإنجليزية بقيادة فريزر (سنة ١٨٠٧) فقد منح هذا الاحتكاك فرصاً عديدة للتعرف على المظاهر الحضارية بوجهيها

الآلى ، والمعنوى ثم الثقة ، والاعتزاز بالنفس حينما انتصرت مصر بقيادة نظامها الفردى على الحملة الفرنسية ، وأجبرتها على الرحيل ، وعلى الحملة الانجليزية وأسلمتها إلى العودة تجر أذيال الخيبة . ونحن لهـذا نعتبرها مرحلة الإعجاب ، والولاء الشديدين للحضارة الغربية ، وبالذات للإسهامات الفرنسية ، وهى — أيضاً مرحلة « التحديث المصرى » وذلك بالنسبة لما قبلها ، وهو تحديث يعتمد على أخذ المظاهر ، وقشور الحضارة استناداً إلى طبيعة المرحلة وهى — كما قلت — « مرحلة الإحياء » ، وهو الاهتمام بكل ما هو واضح وظاهر وسطحى ، ومظهرى ، من الحضارة الغربية أو من التراث ، يؤكد هذا بناء القوة العسكرية بدلاً من الشخصية المصرية وشق الترع والمصارف ، و « الرياحات » بدلاً من التخطيط الاجتماعى الذى ينهض بقيمة الفرد ويحقق العدالة الحقيقية للمجتمع والاحتفال بالصورة البيانية الفياضة بالألفاظ الجزلة ، والإيقاع الموسيقى النحاسى ، والثريات البلاغية المدلاة من الأعمال الأدبية وذلك بدلاً من الفكرة الإنسانية المستهدفة ، والوحدة الوجدانية المنسابة ، والتدفق الإنسانى والجمال الهادئ ، والأصالة بصدقها الفنى والنفسى ففى هذه المرحلة — إذن — امتلكت مصر المظهر الحضارى بكل إمكاناته العسكرية والصناعية ، والأدبية وفقدت أو لم تهتم بالبعث والأحياء الحقيقيين لكل معالم وجودها الإنسانى بدءاً بالإنسان المصرى وانتهاء بدور المجتمع فى حركة التقدم الحقيقى للمجتمعات الانسانية وارتبطت كل مظاهر الحضارة بالفرد ، وتحقيق طموحاته ، وتهيئة كل الظروف لإقامة دولة متحضرة إدارة وقوة عسكرية تلعب دوراهاما فى المنطقة الممتدة شرقا فى آسيا » وجنوبا فى « أفريقيا » لتحقق الزعامة الإقليمية وتصطنع وجودا حقيقاً للعرب والمسلمين وهـذا كله بقيادة الشخصية الطموحة ، وانبهار « إبراهيم بن محمد على » ، وهذا كله — أيضا — فى غيبة التيار الشعبى الذى لم تهيئه التربية ، والنظام للارتفاع إلى مستوى تلك الطموحات ، — ولهذا انحسر هذا المد بعد حين ولم يبق منه بتوالى الأيام ومرور الأزمنة ، وتتبع العصور سوى ظل ماحل لصورة

قائد ممتطيا جواده فى أحد ميادين القاهرة وهكذا تخسر الشعوب معاركها وإسهاماتها إذا ارتبطت بالفرد وكانت فى خدمة الأنظمة ولم يكن التقدم أحد معتقداتها وتصبح تلك المرحلة نموذجاً — فقط — يعظ ، ويرشد ، ويوجه التجارب القادمة ويشير إلى أهمية ارتفاع الشعوب عقيدة وسلوكا لتكون فى مستوى أى عمل حضارى ، أو تطورى ولن يكتب « لمصر » والشعوب العربية صفحة واحدة فى التاريخ الحديث تدل على إسهام . وانتصار مالم تعط « مصر » وشعوبنا العربية الحرية الكاملة دون ضفاف ، والتحرر الكامل من سيطرة الفرد على كل المستويات ، والعمل على تهيئة كل الظروف للكشف عن معدن شعوبنا ، وتنمية طاقاتها الخلاقة ، وذلك مشروط باحترام الفرد واحترام إنسانيته ، ونقل السلطة نقلا حقيقياً إلى مؤسساته السياسية : والاقتصادية ، والاجتماعية ، وشجب كل القرارات الفردية . فخير للشعوب أن تسعد بحريتها وهى جائعة من أن تشقى بعبوديتها هى طاعمة لأنها فى الأولى تصنع مجداً وتقيم مجتمعاً إنسانياً يليق بوجود الإنسان على الأرض ، وخلافته لله عليها ، وتنشر الرخاء والأمن الإنسانيين وهى فى الثانية تحقق مجتمع القطيع الذى يجتر ، وهو ذاهل غافل لاتنبهه إن ضل سوى عصا الراعى . ونباح كلاب الحراسة التى تكون دائماً فى خدمة الراعى .

وقد انعكست آثار هذه المرحلة على حركتين من حركات التاريخ المصرى أولاهما : الحركة الفكرية . وثانيتهما : الحركة الاجتماعية . أما الحركة الفكرية فقد كانت أسبق فى الظهور والتأثير ، وصاغت — شعاراتها من الاحتكاك الثقافى ، والفكرى بين الشرق والغرب خلال مرحلة الانبهار الأولى حيث سيطر على المرحلة إحساس قوى بالتخلف وإيمان قوى بتقدم الغرب وقوة تأثيره وترشيده للمنهج العالمى ، ولهذا سادت المرحلة فلسفة الأخذ والنقل ، وما يصاحب تلك الفلسفة من بعثات ، وانفتاح ، وتبعية ولقد كان محور تلك الحركة شخصية مصرية اتسمت بالعبقرية والأصالة تلك هى شخصية « رفاعة رافع الطهطاوى » الذى يعتبر بحق أبا الفكر المصرى

الحديث وأمام النهضة العلمية ، ولتربوية فى مصر الحديثة إذبين ميلاده سنة ١٨٠١ ووفاته فى ١٨٧٣ تأكدت فى مصر معالم نهضة فكرية وعقلية أعتبرت بحق المدخل إلى التقدم المصرى المنشود فقد بلور قراءاته « لفرلتير »، و « روسو » ، و « راسين » ، و « مونتسكيو » فى مناهج ، ومؤلفات أخصبت روح الأحياء وجسدت معالم التحول مثل كتابه (تخليص الأبريز فى تلخيص باريز) ورسائله المعربة فى مختلف الفنون والعلوم من هندسة ، ومعادن وطبيعة ، وتاريخ ، وتقويم . وأهم ترجماته كتابه : (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) فضلا عن دراساته القانونية ومباحثه الدستورية . حتى كان بسبب انكبابه على الدرس ، والتحصيل محل إعجاب أساتذته مثل المستشرق الفرنسى (سلفستردى ساسى) الذى يقول : « إن الشيخ رفاعة أحسن صرف زمنه مدة إقامته بفرنسا وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة وتمكن منها كل التمكن حتى تأهل لأن يكون نافعا بلاده .... وله عندى منزلة عظيمة ، ومحبة جسيمة (١).

و «رفاعة الطهطاوى » أحد العلماء الذين عولوا كثيراً على التراث والمعارف التى تدرس فى الأزهر ، واعتبارها منطلق النهوض ، والإحياء وهذا قبل سفره إلى باريس ، ولكن بعد إطلاعه على نواحى الحضارة الفرنسية بخاصة والأوربية بعامة ظهر له أن النهضة العربية والمصرية ينبغى أن تبدأ من هناك أى من « باريس » فنقل كل المعارف لتكون بين يدى التحول الحضارى بمصر ، وكان بهذا محددا لمعالم الفلسفة التى سادت هذه المرحلة — كما قلت — يؤكد هذا شعره الذى كان يقوله عن الأزهر قبل سفره :

---

(١) تخليص الأبريز فى تلخيص باريز ص ١٥٤

ألا من يغب عن أزهر العلم فلينح
على بُعـــد دار العـــلم والعلماء
ففيـــه بحور طاميات ، وغـــيره
بحـــور عروض لا تجود بمـــاء(١)

وفى إطار إنتهاج المرحلة أسلوب التحديث إتباعاً للغرب قام رفاعة بتأليف كتاب مشترك فى التربية والأخلاق ، وتثقيف البنات سماه : (المرشد الأمين للبنات والبنين) وفيه بذور الدعوة إلى تحرير المرأة كما لا يقف دور « الطهطاوى » عند مجرد تلقين الوليد الحضارى إنجازات الحضارة الغربية بل قد شارك أيضاً فى بل صدى الوجدان المصرى بترجمته « تليماك » دالا بهذه الترجمة على إتجاهه فى فهم الأدب الحديث وقد سماها « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » وربما لم يعرف الأدب – العربى الحديث الفن القصصى المكتمل البناء قبل هذه الرواية ، ويدعم هذا الالتزام الفكرى من جانب « الطهطاوى » جهود فردية أخرى نلتقى بها لدى : « عبد الرحمن الجبرتى » (١٧٥٤ – ١٨٣٥) . مؤرخ النضال الشعبى ، ومصور الحياة المصرية بأنشطتها الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية ، وأبرز من رافقوا رحلة الميلاد الحضارى لمصر ، ثم « على مبارك » (١٨٢٤ – ١٨٩٣) واضع بذور التربية والتعليم فى مرحلة البعث ، والنهوض ، وترافق هذه الجهود الفردية الجهد المبذول فى إنشاء « الطباعة » ، « والصحافة » والتخطيط المستمر لعملية « الإيفاد ، والابتعاث » إيماناً بدور الغرب حضارياً من ناحية ، وإعادة الجسور التى كانت بين الشرق المسلم والغرب فى أصالته الحضارية « اليونانية » و « الرومانية » عبر العصور العباسية الزاهرة من ناحية أخرى . ويكفى هؤلاء الرواد أن قدموا لحركة الفكر

---

(١) حلية الزمن / صالح مجدى ص ١٧

المصرى فى أفاويق أيامها مزيجاً حضارياً كان كفيلا بتشكيل الجنين الحضارى الذى لو تعهدته الحركة فيما يعد بالتأصيل التراثى ، والمعاصرة الجادة لآتت ثمارها فى مد حضارى يشمل الشعب ، وحركته التاريخية ، لكن الجهود الفكرية والحضارية فى مصر كانت عقيما لأنها مرتبطة بالفرد نظاماً حاكماً ، أو فرداً مبدعا ، وتنتهى بانتهاء الفردية التى ارتبطت بها وهكذا استنامت حركة الإحياء ، وذوت خضرة العشب بمجرد أن ذهب « محمد على » وابنه « إبراهيم » وحل محلهما « عباس الأول » ثم « سعيد » كما أن الشعب لم يدافع عن حركته الحضارية تلك لأنها لم تتحول بعد إلى كيان حضارى شعبى ، كما أن النقل الحضارى من الغرب لم يتوازن مع إستعادة التراث إستعادة ذكية ، حينئذ لم تستطع الحركة العطاء ، ولم تقو على التجاوز ، والامتداد ، وهدأ تيارها إلى حين ، ودفن موجها فى شاطىء المرحلة التى ظهرت فيها معالم التخلف والجمود من مخايل شخصية الحاكم الذى تسلم مصائر الناس ، والتاريخ معاً . لكن محاولات الإحياء التى شملت الحياة الفكرية لم تتوازن مع الحياة الأدبية ذلك لأن الأدب ، أثر من آثار النهوض الفكرى ، وليس الأدب عملا حرفياً ، أو إنتاجاً بشريا تنتجه الدوافع الحياتية الملحة ، أو مجرد ترجمة ، ونقل ، وتعريب وتمصير ، ولكنه فوق هذا كله عمل إبداعى تتكامل مظاهره الفنية والإنسانية والجمالية على مراحل ، وفى أزمنة متتابعة بحيث يصبح نتاجاً للمراحل السابقة ووعياً كاملا بكل ماسبق من دراسات واستعدادات ، ولهذا فإن الأدب فى مرحلة البناء ، والتخليق الحضارى كان استمرارا للتقاليد الأدبية السابقة ، وتمسكا بالقيم الفنية الموروثة عن مراحل ماقبل « محمد على » من تعلق بالحلى المتكلفة ، والزخارف اللفظية والمعنوية التى تضيع فى زحمتها الفكرة هذا بالرغم من ضحالتها ، وصيق أفق خيال صاحبها ، والأغراض هى الأخرى تقليدية ، وليست فى خدمة المرحلة وإنجازاتها الفكرية لكن ماظهر على يد الرواد من ترجمات ، ومؤلفات وصحافة ، ومارافق العائدين من بعثاتهم

« من آمال وطموح ولغة أوربية تحفل بالتصوير الجمالى ، والخيال الرومانسى والمصطلحات الأجنبية الجديدة كل هذا قد ساعد اللغة العربية على أن تنشط وتستعد لتقبل التحدى فتتخلص من بعض من مظاهرها اللفظية وتأخذ فى النهوض ، والحيوية الشىء الذى كان له بعض الأثر الطيب على أسلوب الأدب شعره ونثره حيث أثمر هذا الاتجاه فى أواخر عهد « محمد على » تطويراً للغة . والجملة ، والإنسان وتهيئة كل هذا للنهضة فيما بعد وتكوين جيل من العلماء والمفكرين ومتذوق الفن ، والأدب لتحمل مسئولية قيادة النهضة فى عصر إسماعيل إلى مدى من الرقى والتقدم ، ويرجع الفضل فى هذا إلى مجموعة من أعلام الشعر والنثر قادوا عملية البناء والتخليق الحضارى فى مجال الأدب ولكن فى إطار من المعارضة للماضى لمقاماته وشعره مع ميل إلى التطوير والإصلاح .

نذكر منهم : الشيخ حسن العطار — (١٧٦٦ — ١٨٣٥) والشيخ حسن قويدر : (١٧٨٩ - ١٨٤٧) والسيد على الدرويش ١٧٩٤ — ١٨٥٣) والشيخ ناصيف اليازجى سنه ١٨٠٠ م .

ولسنا بهذا نغفل الحركة الأدبية خارج مصر لأن الحديث عن مرحلة تاريخية فى جزء من الوطن العربى إنما هو حديث شامل للأمة العربية بحكم ما بينها من صلات ، ومقومات ، وتشابه كامل فى كل مظاهر الحياة ، وخضوع للظواهر التاريخية والحضارية المتوارثة بحكم وحدة التاريخ ، والتكوين النفسى المشترك .

فإذا كان الشعر يميل فى الشام إلى وصف الطبيعة ، والأعتزاز بالقومية وهو فى مصر ينزع إلى الأغراض التقليدية ، وفى العراق وباقى الوطن العربى يميل إلى هذا وذاك فإن الشعر والنثر خاضعان فى كل هذه الأجزاء من الأمة العربية إلى ما يمليه الماضى من قيم وتقاليد ، فقد يكون الخلاف فى بعض الأغراض هنا أو هناك لكن المستوى العام هو الخضوع لسيطرة الماضى ،

وروح التراث الماثل، فى الصياغة والمعانى التى تئن من الضعف ، والحركة ولا يسلم من هذا إلا القليل هنا وهناك مما تبدو عليه آثار العافية ، والصحة ، والجمال .

أما فيما يتصل بالمجتمع فإننا نتساءل .... ؟ هل نذهب بعيداً إذا قلنا إن المجتمع المصرى قد ظهرت عليه آثار الأحياء فأصبح قادراً على تمثل المرحلة وتحمل مسئوليات تبعاتها ؟ أم نكون منصفين وواقعيين حينما نرى المجتمع وهو يخطو مرحلة الأحياء بخطوات مشدودة إلى تقاليده ، وعاداته ، وتصوراته الفكرية والعمرانية كان بمعزل عن كل ما يدور — حوله ... ؟ الحق يقال بأن المجتمع المصرى لم يتمثل المرحلة تمثلا إيجابيا .

لأن المرحلة بقيمها الحضارية الجديدة قد شغلت عنه ببناء الدولة ماديا ، وإدارياً ولم يتجاوز هـذا البناء إلى الفرد ، وقضاياه الإجتماعية والاقتصادية والسياسية . صحيح أنها نبهته وأحدثت فى وجدانه وعقله ومضات إصلاحية ، وتقدمية ، ومهدته لتقبل الجرعات الناهضة التى حدثت فى « عصر إسماعيل » لكن بالرغم من كل هذا كان مشدودا إلى الإطار الذى وضع فيه عقب الإنتكاسات الفكرية السياسية والإجتماعية التى ألمت بالعالم العربى ، ومصر بخاصة ، وذلك عندما تربع على السلطة السياسية طبقة العسكريين من « مماليك » « وأتراك » يؤكد هذا ماذهب إليه كثير من المؤرخين ، والأدباء الأجانب الذين أرخوا للمرحلة مثل : « دواردين « مؤلف كتاب » العادات والسلوك فى مصر الحديثة « الذى كتبه بين عامى : (١٨٣٣ - ١٨٣٥) الذى يصور المجتمع المصرى وقد غرق فيما عرف حينئذ بمجتمع الرقص الشعبى (غوازى ، وعوالم) والخرافات ، وأسواق النخاسة وحية الأجانب (الفرنسيين بالذات) بمصر ، وما أحاطوا به أنفسهم من ترف ، ومجون ، وشرب .

ثم الكاتب الفرنسى « شاتوبريان » (١٧٦٨ — ١٨٤٨) فى كتابه : « الطريق من باريس إلى بيت المقدس » والكاتب الشاعر «جيراردى نرفال»

(١٨٠٨ — ١٨٥٥) فى كتابه : (رحلة الشرق) والذى أبدى فيه تعاطفاً مع الإسلام ، ومصوراً للآثار السيئة التى تركها الحكم العثمانى على المجتمع المصرى ، ووضعية الدين لدى هذا المجتمع ومن معطيات هذه الكتب الناقدة للمجتمع ومثيلاتها ، والدراسات التى صورت هذه المرحلة يمكن تصور المجتمع على أنه تخلص — — فعلاً — بفضل نظام « محمد على » ومن أتى بعده من الإقطاع المملوكى والتركى لكنه ارتمى فى أحضان الرأسمالية الأجنبية ، وأخذت مصيدة المرابين الأجانب تؤدى دورها ، فكانت تلك المرحلة المناخ الذى حسّن وجمّل « مصر » أمام الاستعمار الأوربى الحديث وإذا كنا أمام عدد محدود من مشايخ الأزهر الذين أغدقت عليهم المرحلة الأموال والضياع لتقضى بذلك على صوت الشعب ممثلاً فى قيادته الدينية ، وأمام عدد من « التجار » و « الصناع » و « الموظفين » الذين استنبتهم المرحلة لتسيير دفة البناء الإدارى للدولة الحديثة فإننا سنكون أمام شعب مازالت الخرافة تعشش فى عقله ، والأمراض والأوبئة تفتك به والجهل مطبق عليه من كل ناحية والطبقية الاجتماعية تطحنه والأكثرية تنمو عشوائياً تقتات وجودها حيث « الغرز » المنتشية « والموالد » المقامة ، وبقايا نفوذ نظام الالتزام الذى تحول إلى نظام ضرائبى فائق القسوة باهظ التكاليف ، ولا يقابله سوى خدمات محدودة الأثر إذا قسنا بها مصلحة الفرد لا مصلحة الدولة ومن كل هذا فالمرحلة لاتخلو من إيجابيات حققت تطوراً اجتماعياً ملحوظاً حيث أحدثت يقظة قومية منتشية بالإمبراطورية المصرية العلوية ، وتحديث مصر ، ونشوء طبقة مصرية صميمة بجانب الطبقات الأجنبية مما ساعد على ظهور طبقة تتسم بدور مميز فى الحياة المصرية فيما بعد — عصر إسماعيل وماتلاه — حيث رادت حركات اقتصادية ، وفكرية ، وأدبية وفنية ، وثقافية شكلت جذور الفكر المصرى الحديث .

وإذا كانت الاصلاحات السالفة الذكر قد خدمت الدولة ، — وانضوت تحت إطار تنظيم الجهاز الإدارى ، فقد كانت هذه الإصلاحات من الأهمية والتأثير ، والإيجابية حيث كانت المفتاح الحقيقى للنهضة ، حيث حققت إستقلالا

سياسياً لمصر ، وعملت على استقرار الأمن بفضل التقسيم الإدارى ، ونظمت الزراعة ، والتجارة ومهدت الطرق البرية والنهرية وأنشأت كثرة من المدارس المدنية ليؤدى بجانب الأزهر مثل (المبتديان) الابتدائية (والتجهيزية الثانوية ، (والعليا) الجامعية .

وبناء جيش مصرى مهدللشخصية المصرية أن تلعب دوراً جاداً فى الامتداد الأسيوى والأفريقى ، وقد ساعد كل هذا على استتباب الأمن الاجتماعى ، واستقرار ، وانتشار التعليم ، وبدء طور جديد من أطوار البناء والتحليق الحضاريين .

ب ــ النهضة ومحاولات الإفاقة وأبعادها :

عصر إسماعيل هو مرحلة النهوض : والانطلاق وما تم قبل هذا ــ تشكيل وبناء ، وتكديس للوسائل الحضارية فالعبرة من الحضارة والنهوض بمسئولياتها لايعود إلى تجميع المظاهر وتبنى الوسائل ، ولكن فى استخدام فعاليتها فى الحياة ، وأنها غير عائق للشعب عن صنع حضارة خاصة به بل تصبح دافعة له إليها وضرورة حتمية بالنسبة لظروفه التاريخية والنفسية ، والمصيرية ، وأخيراً ، فإن من أبرز شروط الحضارة ، والنهوض بمسئولياتها هو الاتجاه نحو أفكار إبداعية خلاقة تشكل المجتمع وتسير به نحو إيجاد شروط حضارته ذاتها فليست العبرة بامتلاك الوسائل ، وإنما بوجود الأفكار ، وانتشارها وقوة تأثيرها ، وتغلغلها فى الكيان الاجتماعى ، ثم تشكيلها لتيار يقود القوة البشرية فى اتجاه حضارتها وصنع نهوضها .

وفى المنحنى الناهض للتاريخ المصرى الحديث تقف أعلام هذه المرحلة فى شموخ ، وإباء تمنح المرحلة دفعة شعورها ، ونبض قلبها وذوب روحها ، وخلاصة أفكارها تلك الأفكار التى لم تقف عند الانبهار ــ الغربى ، أو الاعتزاز القومى بل كانت محصلة لخبرات هؤلاء الأعلام فى مجالات فكرية متنوعة أثرت نهر الحياة المصرية بفيض إنسانى غامر وتأصيل تراثى ماثل ولعل من أهم هؤلاء : على مبارك : (١٨٢٤ ــ ١٨٩٣) شبلى

شميل (١٨٦٠ — ١٩١٧) ، جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧) ، عبد الله النديم (١٨٤٥ — ١٨٩٦) ، — محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥) ، عبد الرحمن الكواكبى ١٨٤٩ — — ١٩٠٣) ، قاسم أمين : (١٨٧٤ — ١٩٠٨) .

فهؤلاء رغم تعدد مواهبهم ، وتنوع مواقفهم ، وتأثيراتهم فى نهر الحياة المصرية الحديثة ، واختلاف المنحنيات الفكرية التى بذل كل واحد منهم جهده العقلى والفكرى فيها أتفقوا جميعا على أن النهضة ، والبعث ، والإحياء لا يكون إلا بتجديد شامل لمضمون الحياة الفكرية ، وبعث قوى لتراث الأمة الروحى وتاريخها الحضارى ، والعمل على مد التجربة المعاصرة بخبرات الماضى وتجاربه ، وتحويل هذا الماضى إلى رافد يغذى الموقف المعاصر الذى تقفه مصر ، والأمة العربية من التحدى الحضارى العربى الزاحف .

حقيقة عاش المجتمع أزمنة ضاغطة بسب ما انتابه من صراع قوى فى ظل المرحلة التاريخية الممتدة من عصر إسماعيل حتى بدايات الحرب العالمية الثانية ، لكن أقساها تلك التى حاول خلالها أن يخطط لمعالم نهوضه ، وتقدمه أيام إسماعيل حينئذ أحس بالغرب يهدده بالاستعمار ، والأستغلال ويبهره بالتقدم العلمى المادى والأساليب الحضارية اللافتة للنظر والمثيرة للإعجاب ، ثم يرتد ببصره وبصيرته إلى واقعه المادى والفكرى ، فتفجعه مظاهر التخلف فى كل شىء ، والركود الذى أصاب حالة الصحوة التى تحققت فى عصر « محمد على » وابنه « إبراهيم » . فكان خلاصه فى أن يمد ببصره متجاوزا البعد المكانى ليلتقى مع الحضارة الغربية التقاء مادياً حيث ينقل عن الغرب كل شىء يمثل أساساً للنهضة الحديثة ، ويمد بصيرته متجاوزاً الزمن ليلتقى مع تراثه التقاء يحقق له الأصالة ، ويصطنع لنهضته الرافد الروحى الذى يثرى تجربته المعاصرة ، وقد تبنى كلا الامتدادين مجموعة ممن اصطنعتهم المرحلة وتجسدت فيهم خصائصها ، واحتياجاتها ، ومتطلباتها ويتحقق فيهم روح العصر وضمير التقدم . وقد اتفق هؤلاء ،

على أن تجديد مضامين الحياة الفكرية والاقتصادية ، والسياسية لا يكون إلا بالارتباط بالماضى ، واستعادته وبعث كل ماهو أصيل ، ومؤثر فى تراث تاريخنا الممتد لذلك كان هؤلاء جميعاً حريصين على أن يبرهنوا لمعتقداتهم المعاصرة بأدلة من تراثنا الروحى ، والمادى ، فوفقوا فى عملية المزج ، والخلط التى تبنتها المرحلة إلى أن أصبحت بفضلهم نواة الوفاق والمعاصرة والرفقة الحضارية التى جعلتنا — حتى الآن — مبهورين بالحضارة الغربية ، ومعجبين أشد الإعجاب لمستحدثاتها فى كل نواحى الحياة لكن فى إطار من البعث والإحياء ، والاستعادة والالتفات ، والذكاء الموفق فى توظيف الماضى وحسن توجيهه .

وقد استقطبت الحياة العامة كل هذا فظهرت مؤثراتها فى ثلاثة أبعاد :

١ — البعد الاجتماعى :

وكان أقوى ما أثر فى الحياة الاجتماعية هو الاحتكاك العنيف الذى تم بين المجتمع المصرى فى شكل أفراد البعثات العائدين ، والمجتمع الأوربى فى شكل — الأساتذة الأوربيين « الوافدين ، فقد كان هؤلاء وهؤلاء نقلة للمدنية الغربية فى منهج بحثها ، وتعاليمها ، وطريقة حياتها وأسس حضارتها . وقد « عرض ذلك على المصريين عرضا قويا وبخاصة الخاصة منهم فالأساتذة الأوربيون يدرسون على مناهجهم الذى تعلموه فى أوربا ويعيشون فى مصر العيشة الاجتماعية التى كانوا يعيشونها فى أوربا وينقلون نظم الإدارة ، والتعليم ، والصناعة التى شهدوها فى بلادهم ، ويتحدثون الأحاديث المختلفة عن الحضارة الغربية وكذلك يفعل أعضاء البعثة من المصريين . كل هذا جعل فى جو مصر ، وبين أفراد مجتمعها نوعا جديداً من الحياة ومن التفكير لم يكن معروفا » (١)

وبجانب هذا فقد شهدت مصر رواجا اقتصاديا بسبب ازدياد الطلب على القطن المصرى ، والشروع فى بناء قناة السويس والتوسع فى عدد الجيش ، من المصريين ، ثم الاستعانة بشكل ملحوظ بهم فى الشئون الإدارية ،

(١) قصة الأدب فى العالم للاستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود ج ١ ص ٢٨٣

والوظائف المدنية والنمو المطرد فى أنواع كثيرة من الصناعات ، وظهور طبقة الملاك من المصريين – فى المجال الزراعى ، والصناعى – يواكب هذا ويؤكده الاستقلال المالى لمصر بفرمان سنة ١٨٧٣ ، وإنشاء « مجلس شورى النواب » (١٨٦٦) – والعمل على إنشاء طبقة مصرية أرستقراطية يستعين بها « إسماعيل » فى إدارة الحكم ثم الزيادة فى عدد المدارس ، وفتح مدارس لتعليم البنات لأول مرة سنة ١٨٧٣ . صحيح أن المجتمع قد عرف ألوانا من الحياة لم يألفها ، – وتفنن فى ألوان أخرى جهد كثيرا فى إيجادها مقلد الغرب والحضارة الأوربية . لكن هذا كان قاصراً إلى حد كبير على طبقة محدودة من المصريين ، أو المتمصرين ، أو المتفرنجين « أما باقى أفراد المجتمع فهم فى وضع لا يسمح لهم بتبنى هذه الحضارة الوافدة بسبب وضعهم الاقتصادى ، وانحطاط مستواهم الاجتماعى إذا قيسوا بالأجانب أو الشراكسة ، أو غيرهم من الأتراك وبقايا المماليك .

وقد ظلت هذه التأثيرات قاصرة – أيضا – لأنها صادرة عن الفرد وحقه فى التصرف برعاياه ، وأموالهم ، ونفوسهم وكأن المجتمع عبيده وضياعه لارعاياه الذى يتحمل أمامهم المسؤلية ، ولهم حق مساءلته ، وكما قلت مراراً ، هذه آفة مصر من القديم وحتى الحديث ، لا رأى ولا مشورة وجميع أفرادها غرباء حتى يدعون للموافقة على القرار ، وهذا فى أفضل الحالات مما جعل أى نهضة ، أو تقدم مرهونا بوجود الفرد الحاكم ، وطبيعة مزاجه الحضارى ، فالتقدم هبة منه ، والحضارة منحة يمنحها شعبه ، والحرية عطاؤه ، ونوعيه هذا التقدم ، وتلك الحضارة ، وهذه الحرية متوقف على طبيعة المزاج الحضارى لهذا الحاكم .

وكانت البداية للمجتمع المصرى فى مواجهة هؤلاء الحكام عندما وجد « إسماعيل » يعطى لنفسه حق الحاكم المطلق المتصرف فى كل أمور الدولة والشعب

استبداداً بالإنسان، وتبديداً لأموال الأمة ووجد نفوذ الأجانب يعظم، وحكوماتهم تضع لهم مع النظام الاسماعيلي حقوقا، وامتيازات لا يتمتع بها أى إنسان مصرى كائنا من كان، فكان كل هذا فرصة مواتية للمجتمع المصرى فى شكل أفراد كانوا أكثر إحساسا، وحساسية بوافع مجتمعهم، فنهضوا للدفاع بل النضال فى مواجهة هذا التغلغل الأجنبي «والاستبداد الخديوى» وينبهون المصريين إلى الخطر الماثل فى هذين: الاستبداد الداخلى والتعالى والنفوذ الأوربى، الذى ينتظر بلادهم. فأخذوا يفتشون فى لأعماق المصرية عن الأصالة، ويبعثون روح التحدى ويجسدون إرادة الحياة العزيزة، والبقاء الحقيقى فى نفوس الجميع. ويستعيدون لتاريخ الحضارى والنضالى للشعب المصرى

وكانت الأقلام الجريئة التى سطرت بمدادها صفحات الثضال، ودبجت أقوى المقالات هى لمجموعة قادت حركة المقاومة فى أفاويق أيامها، متأثرة فى هذا بالروح التى مست مصر والشرق، والزعامة التى أيقظت الضمير الوطنى وألهبت الحس الفردى، وبنت بفضل تعاليمها روح النضال بين المجتمع ذلكم هو الزعيم المصلح: «جمال الدين الأفغانى» الذى بث تعاليمه الإصلاحية، وشجع حركة الاستياء من طغيان النفوذ الأجنبى، وأخذ يقتحم هذا الحصن الذى ظل قرونا لا يقرب وهو حق الحاكم فى التصرف برعاياه، فوجه الانتقاد لاسماعيل وحاسبه فى الصحف المختلفة التى يكتب فيها أتباعه ومريدوه من أمثال: «أديب اسحاق»، و «ابراهيم المويلحى» «وسليم نقاش» و «عبد الله النديم»، «يوسف صنوع»، و «عبد الله أبو السعود» وهو من ورائهم يغذيهم بروحه وتشجيعه، وآرائه ويكتب هو أحيانا مستترا (١)».

من هنا تحققت بعض مظاهر النهضة الاجتماعية. لأن المجتمع أخذ

---

(١) فى الأدب الحديث: الأستاذ عمر الدسوقى، ج ١، ص ١٠٦.

فى صراع وجدال وصولاً إلى رؤية واضحة لمعالم حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد قادته حركته تلك إلى وقفة شجاعة لا يقلل من قيمتها سوى أنها وقفة عسكرية ، وكان المأمول أن تكون شعبية تلك هى ثورة « أحمد عرابى » التى نحتت فى صخر الاستبداد الداخلى والاستغلال الخارجى طريقا للشعب المصرى .

وحتى تكون هذه الصورة فى إطارها الصحيح ، فإننا يجب أن نجردها من عسكريتها ، ونردها إلى الشعب المصرى وقد ثار مجسداً قيادته وناحتا زعامته ، وصائغا فكره فى هؤلاء الذين وقفوا فى مواجهة « الخديوى توفيق » يواجهونه بمطالب الأمة ، ويرفعون هاماتهم باسم الكرامة المصرية والإنسانية معتزين بدينهم ، وقوميتهم وإنسانيتهم يساندهم فى هذه الوقفة الشعب المصرى بكل طوائفه وفلاحيه من لحظة المواجهة فى «ميدان عابدين» إلى أن أصبحت — صراعاً بين القوى الثورية الجديدة والاستعمار الأوربى الزاحف وبين « مصر » قلعة النضال العربى ، وبين « انجلترا » زعيمة الاستعمار الأوربى الطامع بل بين الشرق ، والغرب . وخضوعاً للمرحلة التاريخية وظروفها انهزمت القوى الوطنية النامية والناهضة .أمام الاستعمار البريطانى الحديث .

والذى يقلل من القيمة الثورية لتلك الحركة فى نظر بعض المحدثين هى أننا ننظر إليها الآن من خلال « الانقلابات العسكرية » التى اجتاحت التاريخ العربى المعاصر ، فأوجدت « طبقة عسكرية » حاكمة تسببت فى تدمير العالم العربى على كل مستوياته الإنسانية والفكرية والسياسية، والاقتصادية والاجتماعية ، ومكنت للعدو فى أى موقع أن يبسط نفوذه على الأرض ، والفكر ، والمصير . والحقيقة أن هذه الحركة لاتتسم بالانقلابية ، لأن عامل المفاجأة ليس من حساباتها ، لأنها نمت وقويت واشتدت بين أحضان الأمة.

٢ — البعد الفكرى :

وإذا كان الاحتكاك بين المجتمع الأوربى ، والمصرى فى إطار

الوفادة ، والابتعاث قد ولد نوعا من القلق والصراع فى التقاليد : والعادات نشأ عنه نهوض اجتماعى فى ناحية ، وقصور فى نواحى أخرى فكانت المقاومة ، والرفض والتمرد ، ثم الثورة .

فإن احتكاكاً قد حدث فى رحاب الفكر حيث تنازعت الحياة الفكرية طبقتان ، أو عقليتان بل مدرستان : الأولى تتشكل من أبناء الثقافة الأزهرية ، والمعاهد الدينية . والثانية تتشكل ممن تعلموا فى أوربا (فرنسا) وقد تمثل هذا الاحتكاك فى كل نواحى التفكير والمظاهر الثقافية فشمل الصراع بين العقلية القديمة ، والعقلية الحديثة ، والعلم الكلاسيكى ، والعلم الحديث ، والأدب القديم والأدب الحديث . « وبعبارة أخرى كان هناك احتكاك فى الأمة الواحدة بين طائفتين ، ومدنيتين ، وعقليتين . . . ظلتا تعملان جنبا إلى جنب ، وتؤثر كل منهما فى الأخرى أثراً يضعف ويقوى بالأحداث إلى يومنا هذا(١) » .

وخلال هذا الصراع برزت مقومات حضارية كانت من أهم مظاهره ووسائله ، وأدواته التى أبرزت قوة الاحتكاك ، وتولدت عنها الانطلاقة الفكرية وبسببها خطت النهضة خطواتها الأولى ، واتضحت فاعلية هـذه المقومات عندما لامسها العقل المصرى الفرد حتى تأكد لدارسى هـذه العقلية ، والمؤرخين للنهضة ذكاؤها واستجابتها لداعى التقدم وتوازنها فى التعامل مع المعاصرة ، والتراث ، ومن أهم ما عرف من مقومات كان أبرزه مايلى : —

(أ) الجمعيات العلمية : والتى تمثلت فى الاهتمام بطبع الكتب العربية القديمة مثل : « تفسير الفخر الرازى » . و« معاهد التنصيص » و « خزانة

---

(١) قصة الأدب فى العالم ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ .

الأدب » و« المقامات الحريرية » وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت فطبعت (١) والنهوض العلمى والأدبى فى كل النواحى مستعينة بالخبرة الأجنبية ، — ولافتة النظر إلى القيمة التراثية والأصالة العربية ومن أبرز هذه الجمعيات « المجمع العلمى ، وجمعية المعارف سنة ١٨٦٨ والجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ ، والجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٨٧٨ .

(ب) الصحافة : ويعد « أحمد فارس الشدياق » فارس هذا المجال حينئذ وتعد صحيفة « الجوائب » الصادرة فى « الأستانة » باللغة العربية من أهم مقومات انتصار اللغة العربية وازدهارها . ،وصمودها فى وجه محاولات « التتريك حيث جمعت بين السياسة ،والأدب بشتى ضروبه ، وأبوابه بما فى ذلك القصائد البليغة لكبار شعراء العربية ثم مجلة « اليعسوب » التى أصدرها الطبيبان : « محمد على البقلى » وابراهيم الدسوقى » وكانت عربية اللغة محاولة تذليل اللغة العربية للمصطلحات العلمية ، « ومجلة روضة المدارس » التى أنشأها على مبارك سنة ١٨٧٠ وقد أسست لإحياء الآداب العربية ، ونشر المعارف الحديثة .

وكانت من أهم الصحف والمجلات التى تخصصت فى الموضوعات — السياسية وحفلت صفحاتها باللغة العربية الجميلة المتحررة بعض الشىء من المظاهر اللفظية التقليدية وجريدة (وادى النيل) التى أنشأها الكاتب الأديب الشاعر عبد الله أبو السعود وجريدة (نزهة الأفكار) وأنشأها (إبراهيم المويلحى) « سنة ١٨٦٩ » ومحمد عثمان جلال لكن « إسماعيل » ضاق بها ذرعاً بسبب ما كانت تنشره من مقالات تهز الأرض من تحت قدميه ، فعطلها خشية أن تثير ضده النفوس .

(ج) الطباعة :

حققت الطباعة لحركة النهوض الفكرى امتداداً ، وتنوعا حيث مهدت الطريق أمام التفتح العقلى المصرى أن يبنى جسوراً ثقافية تربطه بالحضارة

المعاصرة ، وتبعث له حضارته الغابرة ، فكانت الكتب المترجمة ، وأمهات الكتب المحققة وانتشار المجلات ، والصحف خير ما أنتجته الطباعة وبخاصة بعد أن أسس مصنع الورق سنة ١٨٧١ حينئذ ضمنت الحركة الفكرية مزيداً من نشر كتب التراث ، والتنوع فى الكتب المترجمة .

الترجمة والتأليف :

وهما من أهم مقومات النهضة ، وصياغة مضمونها ويمثلان الأجنحة المحلقة للطباعة التى هى من أهم وسيلة التقدم العلمى والأدبى الذى يفاخر به الحاضر على المـــاضى البعيد وكما قلنا إن مقياس النهوض الحقيقى ليس فى الكم ، — وحشد الوسائل وتراكمها ، ولكن فى مجموعة الأفكار ، والآراء التى يتبناها المفكرون ويحرصون على ذيوعها ، وانتشارها ، ولقد لعبت الترجمة دوراً طليعياً فى إعادة « الجسور بين الشرق والغرب » وفى ربط بدايات المعاصرة فى مصر بحركة التقدم — الهائل فى أوربا ، وكان التأليف محاولة استكشاف قدرة العقلية المصرية ، والعربية على الخلق والإبداع ، وبعث دورها التاريخى لكن هذه المحاولات لم تفلح إلا بعد أن فسح الطريق أمام اللغة العربية ، وضاق فى وجه التركية وذلك بفضل الروح المصرى الذى أخذ يسود وينتشر فى كتابات الكتب ، وشعر ونثر الأدباء ، ويعتبر « محمد عثمان جلال » واحدا ممن أمتازوا بتمثيل الروح المصرى أتم تمثيل ، وكان لاختلاطه بالعامة ، ومعرفة أمثالهم ونوادرهم وميولهم الفطرية ، وحبهم للقصص الأسطورى وسيلته للكتابة بلغتهم وذلك اهتماما منه باللغة المصرية فى مواجهة اللغة التركية وهى مرحلة ضرورية للنهوض باللغة العربية .

وتدين هذه المرحلة فى حركة الترجمة والتأليف للرائد الفذ « رفاعة رافع الطهطاوى » وتلاميذه « عبد الله أبو السعود » « ومحمد عثمان جلال » و « خليفة محمود » ومحمد أحمد عبد الرازق » و « حسن عاصم و « قدرى باشا » مؤلف كتب « مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان و « الأحكام

الشرعية فى الأحوال الشخصية » فهؤلاء التلاميذ عربوا نحو ألف كتاب أو رسالة فى مختلف العلوم والفنون وأن جميع الذين نبغوا فى الترجمة كانت لهم مؤلفات قيمة(١) .

وهم بذلك وضعوا لبنة البناء الفكرى بترجماتهم وتأليفهم الشىء الذى يجعل للعقلية المصرية دوراً وإسهاماً فى نهر الحضارة العلمية الحديثة.. لكن ما زلنا — أيضاً — نؤكد بأن الفردية فى « مصر » هى الخاصية عبقرية كانت أم إستبداداً ، فنحن دائمـــاً نسمع « فلاناً المصرى العبقرى » ولا نسمع الشعب المصرى العبقرى ونلقى كثيراً على مدى التاريخ « بالحاكم المطلق المستبد » ولانرى الشعب أو المجتمع المصرى الحر حرية كاملة فى أى مرحلة من مراحل تاريخه وهذا راجع إلى فقدانه لحريته على مدى التاريخ ، وثقته المطلقة فى عدالة حاكمه وإيمانه الغيبى بقيمة الطاعة العمياء لولى أمره وفهمه الخاطىء للقيم النبيلة التى يتضمنها تراثه الدينى نحو تكريم الإنسان وإعزازه ، وجعله خليفة الله على أرضه .

مع أن تاريخ الحضارة العربية والإسلامية وبما تضمن من مواقف ومعارك ، وشخصيات تاريخية ، وفكرية وإنسانية زاخر بالقيم الإنسانية الحريصة على حرية الإنسان وكرامته ، وتراثنا الذى استقت جذوره من الحضارة العربية وعلى إمتداد مسيرتها ، والذى أكسبه الوجدان الشعبى قيم الإعتزاز بالإنسان وبشخصيته وحريته ، وكتبنا التاريخية ووثائقنا التى اشتملت على أخبارنا ومواقفنا شاهدة هى الأخرى على تمجيدنا للحرية والكرامة الإنسانية . بل إن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة يجعلان وجود أمر الحرية الإنسانية والكرامة الشخصية شيئاً منطقياً وأمراً ضرورياً لبناء الحياة .

---

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى ، ج ٢ ، ص ٥١١ .

البعد الأدبى :

مست يد النهضة الوجدان المصرى ، فأحيته بعد موات ، وبعثته بعد طول رقاد ، ونهضت به بعد عثرات وقد تهيأ لهذه المرحلة فنانون شعراء استوعبوا بذكاء وشمولية كل أبعاد النهضة المصرية الحديثة وأثمرت فيهم تجارب الماضى وفاعلية الحاضر ، وامتدت إليهم أصداء الأصوات العميقة التى صدرت عن كل الاتجاهات من « محمد على » حتى « إسماعيل » وأدركوا بحسهم المرهف ، وقلبهم المفعم أن نهضة « مصر » وتقدمها لايؤسس — فقط — على الحكم الحضارى المادى صناعياً أو زراعياً وإنما يضاف إلى هذا عنصر الفن ، واستثمار الخبرة الفنية العربية فى مجال الآداب لأنه بالصناعة ، وبالفنون الجميلة والآداب بنى الإنسان حضارته وأضفى الجمال والسعادة على حياته .

وقد نهض بهذا الدور الاتباعى والإبداعى أفراد مرهوبون فى كل أنحاء الوطن العربى لكن « محمود سامى البارودى » يمثل أقوى تمثيل هذا التيار الناهض بالشعر وتمثلت فيه كل مظاهر المرحلة وعاونته نشأته ، وأرستقراطيته فى أن يلعب الدور الأول ، ويعزف بصدق ، وحس مرهف على قيثارة الشعر العربى فأخرج أجمل الألحان الممزوجة بأرق الرؤى ، والخيالات ، وأدق التصاوير التى بعثت روح الماضى المنتصر ، وبعثت فى الواقع روح النهضة بصدق ، وإخلاص . فاستحق بهذا أن يكون رائد النهضة الشعرية الحديثة .

وإن المنهج الذى سار عليه ، والأسلوب الذى إتخذه يؤكد عمق تجربته ، وذكاء عقله ، وإخلاصه فى ميدان الفن الشعرى الذى خلصه من كل ما علق به عبر مسافات الزمن الضائع فى التاريخ الأدبى والسياسى ، والاجتماعى .

وتحقيقا لهذا الأخلاص فقد اختار موقفين .

الأول : هو الرفض التـــام لكل ماأنتجته سنوات التخلف وعهود الظلام من شعر وأدب متقبلا فى الوقت نفسه كل ما أنجزته مرحلة الإحيـــاء ، والبعث ، والنهوض من تقـــدم ، وعطاء حضارى .
والثانى : التقى فيه التقاء مباشراً بالشعر العربى فى أزهى عصوره الجاهلى حتى العباسى ، وأخذ يمتح من هذا المعين — ويختزن وجدانه فيضا وفيرا من هذا الشعر حتى شبع وأرتوى ثم أخذ يعيد على مسامع الوجدان العربى الحديث أجمل القصائد ، وأقوى الأساليب بديباجه عربية أصيلة ، وفحولة لفظية تعرف طريقها إلى القلب والعقل معا ، وعارض بكثرة الشعراء القدماء أمثال : « أبو نواس » فى قصيدته : —

أجارة بيتينا أبوك غيور
وميسور مايرجى لديك عسير

بقصيدته : أبى الشوق إلا أن يحن ضمير
وكل مشوق بالحنين جدير

وعارض — أيضاً — أبا فراس فى قصيدته : —

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر
فما للهوى نهى عليك ولا أمر

بقصيدته : طربت وعادتنى المخيلة والسكر
وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجر

وشعراء آخرين أمثال : « الشريف الرضى » .

وحاولت ريادة البارودى للشعر أن تبدع أشكالا شعرية تتحرر فيها من البحور القديمة ، وتأتى بأوزان حديثة مثل قصيدته التى يقول فيها : —

لوى جيده وانصرف ماضره لو عطف
ومثل : أملأ القدح واعص من نصح

لكن هذه الأشكال تدور فى ذلك الوزن القديم عند النظر والمقارنة والذى ينبغى أن نخرج به من هذه المحاولات هو روح النهوض، والتجديد، والتطور التى مست الشعر ، والشعواء ويقف بجانب البارودى ، فى هذه المرحلة — مرحلة التأصيل — شعراء آخرون فى مقدمتهم : « حفنى ناصف » (المتوفى سنة ١٩١٩) ، واسماعيل صبرى : (١٨٥٤ — ١٩٢٣)

واللافت للنظر فى هذه المرحلة هو ظهور شواعر بجانب الشعراء وذلك ليكتمل للمرحلة زيادتها الشعرية ، وتأصيلها الفنى وحتى تكون هذه الظاهرة دليلا على النضج المرحلى والوعى الإجتماعى وانتشار الثقافة بين أفراده . ومن أبرز هؤلاء الشواعر : « عائشة التيمورية » : (١٨٤٠ — ١٩٠٤) « ووردة اليازجى » : (١٨٣٨ — ١٩٢٤) . وليس فى شعرهن جديد ، وإنما الجدة فيه أنه شعر المرأة التى دلت على أن مرحلة شعرية متميزة قد بدأت ، وهى —أيضاً— تحمل جنين الفن الشعرى القادم بسماته التجديدية ، والتقدمية والإطار الفنى لهذه الريادة يتمثل فى شعر البارودى حيث الجو الصحراوى بقيمة ، وتقاليده ، ونبله ، وسيطرة الأفكار المتوارثة عن الحب والعشق ، ثم التوثب الفردى حيث نلتقى بالفردية الضاغطة على عناصر الحياة الإجتماعية فى مجـــل الفخر » ، « والمدح » و « الرثاء » « والهجاء » ..

وهكذا تختلط فى الشعر مظاهر الفروسية ، والغزل ، والفخر وتمتزج فيه مشاعر الفرد ، وأحاسيس العبقرية الفردية ، وصور الكمال المطلق فى الإنسان ، وهذه السيطرة لمضامين الصحراء ، والبداوة تتجاوز المضمون إلى الشكل ، فتستبعدها الأوزان ،والبحور التقليدية مثل الكامل

بتفعيلاته ، والطويل ، ثم الوافر ، والرمل تلك التى صاغ فى قالبها شعراء الازدهار شعرهم ، ثم تأتى « اللغة » وهى من أهم سمة لفتت نظر رواد حركة بعث الشعر ، ومن جاء بعدهم من مدرسة الكلاسيكية الجديدة ، فقد كسبت « اللغة الشعرية على أيديهم قوتها ، وأهميتها القديمة كشكل جميل فى حد ذاته ، وامتلأت بالرنين الموسيقى ، وتجملت بالرونق ، والصقل ، والتجويد .

فاللغة بحق هى الفيصل بين تيار ، وتيار فبينما كانت قبيل « البعث » و « الأحياء « محنطة ، وجهورية ، ومسلوبة التأثير ، والتأنق ولاصلة لها باللغة الشعرية التى أمتلأت بها لهات الشعراء العباسيين وغيرهم ، فإنها قـد أصبحت غنية بالأختيار الجيد ، ومصفاة من شوائب العامية ،ة والنثرية ، ومختارة اختياراً قاموسيا يدل على علم ، وبصر وفقه باللغة العربية ، ومفرداتها ومن هنا وبسبب اللغة بالذات اتضح الفرق بين عصور الضعف ، والركاكة وبين عصر الإحياء والبعث والنهوض والأمتداد .

فهذه المرحلة — إذن — نظرت إلى الشعر العربى نظرة فنان يستوحى عمله الفنى ، ويستلهم قواه الخالقة من الطبيعة الفطرية ، — والمكونات الأصيلة لمثله الأعلى . حيث وجدت أزهى عصور الشعر مثلها الأعلى وكانت الموسيقى الشعرية ، واللغة والتشكيل البيانى للصور المكونات الفطرية ، والأصلية لهذا المثل الأعلى فأنتجت شعرها ، وقال الرواد ومن أتى بعدهم نماذجهم الشعرية والكل مبهور أمام هذه المكونات بل وصلوا بها ، ومعها إلى حد التقديس وأى خروج على هذه الموسيقى ، واللغة ، والتشكيل إنما هو هدم للمثل الأعلى ، وهكذا ، ومع الزمن تحولت هذه القداسة إلى قوانين صارمة يخضع لها الشعراء جيلا وراء جيل .

ولقد كان الأستاذ الدكتور « أحمد هيكل » محقاً ، وناقدا ، ومؤرخا ، — حينما سمى تيار الأحياء ، والبعث « بالتيار البيانى » لأنه

لاحظ سيطرة « البيان » وفصاحة اللغة على كل إنتاج « مدرسة البارودى » ومن أتى بعده من شعراء جياه وتياره وهى تسمية فنية ، وتاريخية ومرحلية ، وتضع أمام الدارس الأسس ، والمعايير التى تحكم مسار تطوره ، وتقدمه . وهذا راجع لخضوع تلك المدرسة الشعرية لعاملين ، **الأول** : عدم إلحاح الحاجة عليها للتكسب بالشعر تلك الآفة التى من شأنها أن تشد الشاعر إلى حاكم أو غنى .

والثانى : البعد الكامل عن الثقافة التقليدية ، أو القرب الشديد من الثقافة الحديثة هذا إلى الأتصال القوى بألوان من الحياة الحضرية (١) .

لكننا نحمل هذه المرحلة مسئولية إخضاع هذه الأجيال للسيطرة اللغوية والموسيقية سيطرة منعت شعراء موهوبين ، وفنانين صادقين من أن يثروا « لغة الشعر » و « موسيقاه » . وتصويراته بتجارب جديدة فى مجالى الإبداع اللغوى ، والتشكيل الشعرى ، وذلك لعـــدم توفر الجرأة الفنية فى زمن مبكر عن تلك الفترة التى غنى فيها الشعر ببعض التطورات المعاصرة فى الشكل والمضمون .

صحيح أن المرحلة كلها ، ومراحل أتت بعدها أسهمت بدور عظيم فى توقير اللغة القديمة ، وبعثها ، وإشاعة استعمالها بين المفكرين والأدباء ، وبهذا أثرى الشعراء الكم اللغوى المتداول ، — وأعادوا للغة نقاءها وجرسها وجزالتها ، وعظيم تأثيرها ، وأداءها وهذه ميزات تحولت — فيما بعد « إلى عيب حيث جعلت البعض يتوهم أن رهافة اللغة ، وفصاحة الكلمة مطلب فى حد ذاته ، لو أخذ بالفكرة ، وأساء إلى المعنى ، وسيظل

---

(١) تطور الأدب الحديث فى مصر : أو ئل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب العالمية الثانية للدكتور أحمد هيكل ، ص ٥٨ ، طبعة ثانية ، دار المعارف ، سنة ١٩٧١ .

الأصرار على الأهمام بفصاحه الكلمة « سمة عامة للعصر حتى تبذل المدرسة الرومانسية خطوات جريئة فى إشاعة الفهم الصحيح للغة » (١) .

وفى إطار التطورات السياسية ، والاجتماعية التى أعقبت إخفاق — العرابيين ، ثم الأحتلال البريطانى « لمصر » تمددت الحياة السياسية لتشهد ميلاد قوة ضاغطة بل ومنفردة بالحكم . وهى قوة الأحتلال والأستعمار . تلك القوةالتى أصبحت فيما بعد عنصرا هاما وحيويا فى الإنتاج الشعرى لعشرات من السنوات القادمة . فالاحتلال مع مرور الوقت كان يتحول إلى عدو رهيب ضد الوجود الإنسانى ، والكرامة والحرية ، والشعر — أيضاً — فى رفقة هذا الوقت كان يدل على الفاجع من الحياة ، ويشير إلى الاحتلال على أنه مصدر « التخلف » و « الجهل » « والدمار » الذى لحق « بمصر وبشعبها .

وقد تناول الشعراء الوجود الأستعمارى بأساليب مختلفة كان من أبرزهم تيار « البيانيين عند « شوقى » وجيله . وبهذا أصبح الاحتلال ، وآثاره فى المجتمع ، والحياة السياسية والاقتصادية والفكرية القضية الأهم أمام الشعراء وانتقل بهذا خطوة جديدة تتجلى فى تحوله عن الأستغراق فى لمديح ، والفخر والرثاء والمعارضات إلى النظر إلى الشعوب ، والميل إلى الموضاعات — الوطنية القومية ، والاجتماعية طلبا للأستقلال ، ومحاربة للأستعمار والمستعمرين ، وعطفا على المظلومين ، والمقهورين .

وقد نما هذا التحول مع أواخر القرن التاسع عشر ، ونما نمواً عظيما فى القرن العشرين ، وتغنى بكل هذا شعراء أمثال : « شوقى » و « حافظ و « خليل مطران » وولى الدين يكن « ومحمد عبد المطلب » و « أحمد محرم » و « الزهاوى » و « الرصافى » .

---

(١) شعر ناجى الموقف والأداة : د. طه وادى ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٢٥ .

وإذا كان هذا الجيل قد وصل بهذا التيار البيانى إلى قمة نضجه الفنى ، واصطنع إضافات فى ميدان المعجم اللغوى ، والتصوير البلاغى ، فهو لا يختلف عن الجيل الرائد فى إيمانه بالشكل ، — والمضمون والطبيعة الفنية للشعر ، ومقوماته وطريقة تناوله للأحداث وهذا كله يؤكد التوازن الفكرى والفنى « لمدرسة البيانيين » والتقارب الملموس فى طريقة كل جيل فى عملية التشكيل والبناء .

وإذا كان جيل شوقى قد نجح فى إبداع الشكل الشعرى المسرحى فإنه لم يخرج فى شعر الحوار عن المنهج ، واللغة ، والأسلوبية التى عرفت عن القصيدة العربية ، فكأن المشهد المسرحى قصيدة مقسمة إلى بيت أو أبيات حسب طبيعة الحوار أى أن الولاء قائم نحو الميراث الشعرى ، وما زال نهر المدرسة البيانية متجدداً بما تثريه التجارب الشعرية المحافظة ، والحوار الشعرى داخل إطار العمل المسرحى . . لكن هذا لا يقلل من القيمة الفنية والدور الريادى لجيل شوقى فى إرساء دعائم هذا الفن ، وتطويع الشعر العربى الغنائى للأشكال المسرحية الدرامية . وتوظيف صوره البيانية للكشف عن الأحاسيس الإنسانية وبحسب — أيضاً — لهذا الجيل أنه كان بوتقة انصهار العملية الشعرية الحديثة بعناصرها اللغوية والتصويرية ، والبنائية ، حتى أقام بناء شعرياً حديثاً ، أضحى رافداً معطاء ، ومدرسة فياضة بالمعجم اللغوى — والبيانية الفنية بالألوان ، والصور ، ففاض على كل التيارات الشعرية — واستفاد منه شعراء الجيلين : « الرومانسى » « والحر » فكان بحق خير واسطة بين جيل التراثيين ، وأجيال الإبداع الشعرى الحديث وهذه حقيقة من حقائق تاريخنا الأدبى حيث يتحمل مسئولية التطور الفنى فى الأدب أجيال : جيل يتتلمذ ، ويتمثل ، ويستعيد بوعى واقتدار ثم يفرز ما استفاده ليواصل المسيرة جيل آخر . وهكذا كان جيل « شوقى » نموذجا عبقريا فى الأخذ ، والعطاء حتى نضجت الكلاسيكية الجديدة . وأثمرت ، وجيل « شكرى » والعقاد كان هو الآخر

نموذجاً فنياً ، ورافداً فياضاً حتى استقرت « الرومانسية » وجيل : « على محمود طه » و « أبو شادى » و « ناجى » و « مخيمر » و « ومحمود حسن اسماعيل » تغنى ، وواصل عطاءه ، وأغنياته حتى تفرع عن هذا النهر الشعرى المتدفق « غدران شعرية » ترنم على شطآنها أطيار من كل « أياك » و « روح » و « فنن » بمختلف الألحان ، وبشتى الإيقاعات وعلى متباين الأوتار وسمح لكل التيارات الشعرية فى « مصر » والعالم العربى أن تجرب ، وتستحدث ، وتشكل ما شاء لها رحابة البحور العربية ، وتنوع تفعيلاتها ، وثراء موسيقاها ، حتى كان هذا الحشد الوافر من الشعر العربى الحديث باتجاهاته « المقطعية » و « التفعيلية » و « الشعر الموجى » إلى ما شاء الله للامتداد الشعرى أن تتولد عنه تيارات وأسماء .

(ج) مرحلة بناء الشخصية المصرية والبحث عن ذاتيتها :

كانت هزيمة العرابيين مدخلا للبحث عن الذات المصرية وسط ركام من التخلف ، والاستبداد ، والطبقية ، والتسلل الغريب عبر آلاف السنين . ومصر إن كانت قد هزمت عسكريا ، وأتاحت بهذه الهزيمة للاستعمار الغربى المتربص أن يدخل تحت شعار حماية السلطة والمصالح الغربية ، فإن مصر — أيضاً — قد أدركت قيمتها ، وتحسست دورها ، وتنبهت إلى وضعها ، وتافتت إلى شخصيتها .

ولست هنا فى مجال تحليل الحركة العرابية . فسواء لدى كونها حركة عسكرية متمردة لصالح مطالبها الطبقية وأن الحركات — العسكرية مهما كان إخلاصها ، وقوتها فهى مرفوضة لأنها ليست قائمة على فكر مستنير وليست مرتكزة على قوة شعبية ، والتاريخ القديم ، والحديث خير شاهد على الحركات العسكرية ، ونتائج تواجدها السياسى والفكرى والقيادى فى إطار الحركة التاريخية ، وعمليات القمع التى تنتهى إليها عادة . . .؟ ، أم كانت حركة الشعب المصرى ممثلة فى خيرة أبنائه حينئذ ؟ هؤلاء الأبناء

الذين يشرفون بالانتماء إلى القطاعات العديدة للشعب بفلاحيه ، وملاكه ، وموظفيه ، والذين أحسوا بالمهانة فى مواجهة الأجنبى الدخيل فثاروا لأنفسهم أولا ، ولفتوا أنظار العالم كله بفضل ثورتهم تلك إلى وضع الشخصية المصرية واضطراب مقوماتها وسط هذا الحشد الهائل من البقايا ، والنفايات البشرية القادمة من هنا ومن هناك .

كل هذا لا يعنينى ، لأن الذى أقصده أن هذه الحركة كانت فرصة ذهبية أمام الشخصية المصرية كى تلعب دورها الحقيقى ، وأن تبادر فتأخذ زمام المبادرة وتعيد حساباتها مع الواقع العالمى وهو أهم ما بذرته الحركة العرابية من بذور فى أرض الوطنية المصرية وبسببه ينبغى أن ينظر إلى الحركة العرابية فى إطار المرحلة التاريخية والظروف السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية السائدة وقتئذ لنصل إلى النتائج التالية :

١ — إنها حركة تمرد تنطوى على وطنية مخلصة ، وولاء كامل لمصر وشعبها

٢ — وهى — أيضاً — مصرية صميمة ، وأصيلة ، وذلك بسبب من قاموا بها ، وبحكم الوعاء الاجتماعى الذى ينتمون إليه ، والتكتل الاجتماعى الذى واجهوه ، وشعروا بالمرارة تجاهه .

٣ — وربما كانت حركتهم رمزاً لشعار «مصر للمصريين» والذى أخذ ينمو ، ويظهر ، ويناقش على كل المستويات الفكرية ، والسياسية والاجتماعية فيما تابع هذا من أحداث ، ومواقف ، ومناسبات .

٤ — إن الذى أحاط الحركة بما أشيع عنها من أنها : « هوجة » وحركة « دراويش » . . . وضيق أفق ، وخروج عن المألوف ، وتجاوز للحدود ، والانفصالية والانعزالية إنما هو الهزيمة أولا ، والرأى العام الذى نافق السلطان ، والمحتل ثانياً . . . ثم البطش ، والإرهاب الذى

ووجه به العرابيون فى كل مكان حتى إن الزعامة السياسية فى شخص « مصطفى كامل » قد أدانت الحركة .

٥ — هذه الحركة كانت واضحة الانتماء فهى مصرية .. ثم إنها متدينة وأى خروج عن إطار التدين إنما هو هدم لأهم عناصر الشخصية المصرية ، وإذا كانت الشخصية المصرية متدينة بطبيعتها فإن أصحاب هذه الحركة قد مثلوا تلك الشخصية أقوى تمثيل وإذا كان الدين بعامة يدعو إلى تكريم الإنسان فإن الإسلام يحض على هذا التكريم ويدعو إلى الحرية والمساواة ، والعدالة بشكل أصبحت معه هذه المبادىء من أسس هـــذا الدين العظيم ، ومن هنا كان شعار « مصر للمصريين » الذى فهم عن العرابيين إنما يعنى مصر بأصالتها ، ودينها ، وماضيها .

ولو استمر هذا الشعار مرفوعاً ، ووفقت الحركة فى نضالها السياسى والاجتماعى لتغير وجه التاريخ المصرى ، لـــكن من أرخوا لهـــذه الحركة كانوا متحاملين على تدينها فرموهم بالدروشة ، ومتحاملين على حقوقهم الوطنية فرموهم بضيق الأفق ، ومتحاملين على مصريتهم فرموهم بالتعصب :

وهكذا ضاعت الحقيقة كما تضيع باستمرار حينما يكون الأمر بيد شخص واحد : هو القاضى ، والمحامى ، والمدعى .

إن الناظر إلى رد « أحمد عرابى » على رئيس النظام « رياض باشا » — عندما أنكر الأخير وجود كفايات مصرية تصلح أعضاء لمجلس النواب — والذى يقول فيه : « عجبا إنك مصرى ، وباقى النظار مصريون ، والخديوى أيضا مصرى . . أتظن أن مصر ولدتكم ثم أعقمت ؟ ! لا ؛

بل فيها العلماء والفضلاء ، والنبلاء ، والنبهاء ، والبلغاء ، وعلى فرض أنه ليس فيها من يليق كما ظننت . أفلا يمكن إنشاء مجلس يستمد معارفكم ويكون كمدرسة إبتدائية ، وبعد خمسة أعوام يتخرج فيها رجال يخدمون الوطن بصائب فكرهم ،ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية .. (١)

الناظر فى هذا الكلام لابد أن تتأكد لديه الأصالة المصرية ، والانتماء المصرى ، وشعار « مصر للمصريين » مؤسسا على فكر إصلاحى رشيد .

من هنا كانت البداية بحثاً عن الذات ، واستكمالا للوجود المصرى ثم تعاقبت الأحداث ، وتوالت الأيام لتتأكد هذه الفكرة . فكرة محاولة البحث عن الذات ، وتكون ثورة سنة ١٩١٩ امتدادا للحركة العرابية لكن بمنهج ثورى ، وقدرات شعبيـــة ، وقيـــادات فورية ، ويكون دورها هو انتزاع الذات من بين حفـــائر الاستعمار ، والتسلط ، والاستبداد .

وفيما بين الثورة العسكرية الأولى سنة ١٨٨١ ، والثورة الشعبية سنة ١٩١٩ تخلقت بحق سمات ، وقسمات الشخصية المصرية فكريا وسياسيا واجتماعيا ، وثقافيا ، وتحددت — أيضا — معالم — الارستقراطية المصرية وبرزت إلى الوجود المصرى كيانات اجتماعية جديدة تمثل النشاط العام للمجتمع وتطورت الأحداث ، والآراء فى طريق تحديد معالم المجتمع المصرى ، وتقويم الشخصية المصرية ، وقد سارت هذه المحاولات فى خطوط متباينة شكلا ، ومتفقة مضموناً .

فحركة الإصلاح الدينى ، والاجتماعى التى رادها الإمام محمد عبده

---

(١) مجلة الهلال ، ج ٢ ، م ١٠ ، ص ٣٣ ، سنة ١٩٠١ .

استهدفت شخصية مصرية سلفية تؤمن بالتقدم ، والحضارة ، والعلم وتمتزج فيها معالم الكون بأبعاده الزمنية ، والفكرية ، تلتمس لديها الماضى بأمجاده .

وتطمئن إلى فعاليتها ، وعطائها ، ورؤاها نحو المستقبل وكان الامام فى هذا مثل كثير من المصلحين الذين قادوا شعوبهم نحو تحديد معالم هويتها الحضارية ، والإنسانية .

فكان مثل « لوثر » و «كلفن » وغيرهما كما ذهب الدكتور هيكل أى أنه فى حركته الإصلاحية اعتمد العقل مقياسا فعنده أن كل ما لم يتفق مع العقل من تفاسير السابقين يعتبر دخيلا لا يستحق البقاء ؛ وكان بهذا الوضوح الفكرى والإصطلاحى دعما — وعونا نحو إيجاد شخصية مصرية لها دورها فى حركة التاريخ ، وقد ساعده فى كل تلك المواقف ، والآراء اطلاع واسع وفهم سديد للظروف المحيطة وتوفيق ذكى بين العلم الشرقى ، والعلم الغربى حتى أصبح صاحب مكانة لم تتهيأ لغيره من المصلحين ، مكانة سمحت له أن ينفث روحه فى الصحافة ويؤثر بذلك فى الرأى العام .

وعلى نفس الدرب ، وفى طريق خلق مجتمع مصرى متميز ناهض على أساس علمى ، وعصرى ، سارت مدرسة « أحمد لطفى السيد » التى اتخذت « الجريدة » منبرا لها ، والتجربة الحضارية الغربية معيناً والتاريخ القومى والتراث الحضارى رافدا ، وتتغذى هذه المدرسة من إنتاج ، وتراث تيارين غربيين ، أحدهما : وتمثله التيارات الفكرية الإنجليزية ، والثانى : ويمثله التيار الفرنسى ، ويحمل لواء هذه — التيارات مجموعة من المثقفين المصريين الذين نهضوا بدور الاحتكاك الثقافى بين « مصر الحديثة » « وأوربا الرائدة »(١) .

---

(١) راجع فى هذا :
١ — د. هيكل : مذكرات ، ج ١ .
٢ — الأستاذ أحمد أمين : زعماء الإصلاح .
٣ — الأستاذ محمد عبده العقاد .
٤ — رحلة فى حياة مصر للأستاذ عبد المنعم شميس .

فهؤلاء المثقفون — وهذا إنصاف — جذورهم فى القديم أعمق من أن يستأصلها الجديد الطارىء ، والوافد؛ وحماسهم للتغيير والإصلاح ، ومسايرة العصر أقوى من أن تطفئه التقاليد الموروثة فمدرسة لطفى السيد — إذن — وهى تبحث لمصر عن ذاتها لم تكن تحاول فصم العلاقة المصرية التراثية ، كما لم تقصد إغراق « مصر » فى بحر المعاصرة بقدر ما كانت ترى مصر قد تحملت مسئوليتها الحضارية بتجربة شخصية متميزة : متحررة من السيطرة العثمانية وناهضة بسبب إيمانها بالتحرر من التخلف ، والخرافة الموروثة ولا أدل على ذلك من أن « لطفى السيد » وهو يترجم لأرسطو ، وللفكر اليونانى كان يقصد إلى عدم وقوع رجة عنيفة بين برامجنا العلمية ، وبين عقائدنا القومية . (١)

وفى هذه المدرسة تلمع أسماء المثقفين المصريين الذين فجروا — كل فى موقعه — ينابيع الشخصية المصرية ولا يوجد اتجاه فكرى ، وسياسى واجتماعى ، وتربوى ، واقتصادى اختطته النهضة المصرية إلا وكان لهذه المدرسة فضل تقويمه على النهر الذى اختطته ، — والغاية التى تسير نحوها ، ولا نذكر سياسياً أو أديباً ، أو مفكراً أو أستاذاً فى الجامعة ، أو صحفياً ممن برزوا على مسرح الحياة المصرية بعد الحرب العالمية الأولى إلا وكان للطفى السيد فضل توجيهه وإرشاده ، وتقويمه على النهج الذى سارت عليه . وفيه النهضة المصرية بعد ذلك (٢).

وفى إطار التأصيل الفكرى المصرى ، والبحث عن هوية مصر وذاتيتها ، وانتشالها من الضياع الذى عاشته مع الهزيمة العسكرية العرابية . يتشكل جيل الريادة لهذه المرحلة . وتلمع أسماء : « قاسم أمين » و « أحمد لطفى السيد » و « محمد حسين هيكل » و « طه حسين » و « محمود عباس العقاد » ،

---

(١) مجلة الهلال ، ج ٣ ، م ٢٢ ، ص ٢٢٣ ، سنة ١٩٢٤ .

(٢) أدب المقالة — المدخل فى فن التحرير الصحفى — للدكتور عبد اللطيف حمزة ، ج ٦ ، ص ٧ .

و « مصطفى عبدالرازق » و « إبراهيم عبد القادر المازنى » و « عبد الرحمن شكرى » و « محمد توفيق دياب » و « مصطفى صادق الرافعى » و « عبد القادر حمزة » وغيرهم كثيرون ممن عاصروهم ، أو تأثروهم ممن رادوا الإبداع الفكرى المصرى قبيل الحرب الثانية ، وبعدها .

فتلك الأسماء قد أثمرت قرائحها مجموعة من الأفكار فى مجالات اجتماعية ومنهجية ، وتذوقية ، وسياسية شكلت فى مجموعها أرض المعياد للشخصية المصرية ، ومصر الحديثة ، ومصر ذات الإنتماء الدينى ، والعربى : على أن أهم ما جاء به « محمد عبده » من أفكار ، وما اختزنه عن أستاذه « جمال الدين الأفغانى » من آراء فى المجال الدينى وما نادى به « قاسم أمين » فى المجال الاجتماعى ، وما دعا إليه « لطفى السيد » فى المجال الفكرى ، وما آمن به من آراء « ليبراليه » كل هذا استطاع أن يؤدى دوره فى الحياة المصرية بعمق ، ومهد الطريق لإنشاء الجامعة المصرية « التى بدورها مهدت السبيل لحركة فكرية ، وعلمية وثقافية عامة دعمت الدور المصرى وأفادت العقل المصرى بل والعقل العربى بعامة أو قل إن صدور كتابى : « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » لقاسم أمين وما تضمناه من آراء وأفكار ، ورؤية ثورية لدور المرأة ، وفعاليتها فى المجتمع والحياة ، ثم كتاب : « الإسلام وأصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق وما احتواه من فكر سياسى حول وضع الخلافة فى الإسلام ، ورأى العقل المصرى فى العلاقة بين أنظمة الحكم ، والدين الإسلامى ثم كتاب : « الشعر الجاهلى » وما أثاره من منهج حر فى ارتياد شعاب التاريخ ، ومناقشة التراث ، وتكوين العقلية المحايدة فى التعرف على ينابيع الفكر المصرى ، وأن المقدسات تقوى فى النفوس ، وتشرق فى القلوب بالمناقشة واستضاءتها بنور العقل ، واليقين ، وتضعف وتذبل ، وتهاوى إذا اتشحت بالتسليم ، وتلفعت بظلمة الغيبيات وأخيراً كتاب « الديوان » للعقاد والمازنى ، ومحاولاتهما الحادة فى سبيل إيجاد

منهج للنقد التطبيقى ، والتذوقى ، وإثارتهما لقضايا جمالية تمس الشخصية المصرية وجدانياً وعقلياً .

فصدور هذه الكتب بهذه الروح ، وفى إطار هذا المنهج قد قوى الصلة بين الشخصية المصرية الضائعة ، وبين فرص تواجدها وحضورها وتحديد معالم وجودها ، ووضعت خطى مرحلة البحث عن الذات على أول طريق الوجود المصرى الحديث وتأسيساً على ما ذكر فقد سادت مصر عقليتان ، واستبد بها تياران وتأرجح الوجود المصرى بينهما : عقلية سلفية ، وتيار تراثى خالص وعقلية جدلية ، وتيار عصرى مبهور .

تتغلب إحداهما حيناً ، وتتغلب الثانية حيناً آخر ، تتغلب الأولى فتتحكم العاطفة ، ويبشر التراث بنهضة حاضرة و بمستقبل واعد وتتأثر الثقافة ، والفكر فى نواحى الحياة بهذه العقلية ، وسيطرة تيارها السلفى ويسترد الماضى سلطانه على كل شىء ، وتتغلب الثانية فتنهض العقلانية ، ويسود الفكر الحر ، وتنتشر الأفكار العلمية وتتأثر الثقافة ، والفكر فى جميع نواحى الحياة ، ويسترد الحاضر المعاصر سيطرته على كل شىء .

ويستمر الصراع قوياً ليؤدى دوره الخلاق فى صياغة العقلية المصرية والشخصية الاجتماعية لمصر فتتحسسه قوياً متدفقاً صانعاً ، وخالقاً فى رحاب الحرية ، وفترات الازدهار الديمقراطى ، وخابيا كسولا فى جو الشمولية ورحاب الحكم المطلق ، وفترات التمزق ، والانطفاء وسيظل هكذا قدر مصر تتصارع فى ميدانها تلكم العقليتان بتياريهما إلى أن تجد فى النهاية وجودها ، وتحصل على شخصيتها المحددة ، ويكون لها دور إيجابى ، ومنموس فى حركة التحديث ، والترشيد العالميين .

•• وبأثر من مرحلة البحث عن الذات : وانطلاقاً فى طريق مصر الحديثة تأثرت الحياة السياسية حيث سادت بعد الاحتلال تيارات أقواها وتمثله الحزب الوطنى بزعامة « مصطفى كامل » و « محمد فريد » يدعو لتركيا ، لكن يطلب الاستقلال التام لمصر ، وهو تناقض أوحته المصلحة المرحلية وقتئذ و « اللواء » منبر هذه الدعوة ، ثم « حزب الإصلاح » ويدين بالولاء لتركيا مدفوعاً بالعقيدة الدينية ، والشكل السياسى للدولة الإسلامية مشمولا بتأييد الخديوى ويعبر عنه « المؤيد » وهكذا تكون الحركة الوطنية المصرية قد نمت وقويت لكن فى إطار التأثير العثمانى ، وأسيرة الخلافة العثمانية وتتحرك فى إطار الجامعة الإسلامية وينتهى دور هذه المرحلة بموت الزعيم الشاب « مصطفى كامل » تاركاً فى ميدان النضال المصرى حقيقتين : **الأولى** : تأصيل الوطنية المصرية ، و **الثانية** : جعل التعليم والسعى لإقامة الجامعة المصرية من أهم مقومات حركة النضال الوطنى وتقترب الوطنية المصرية من حقيقة النضال على يد رجال « حزب الأمة » ومنبرهم الصحفى « الجريدة » لكنهم استبدلوا بالخلافة العثمانية ، وتأثيراتها على الحركة الوطنية لدى « الحزب الوطنى » و « حزب الإصلاح » ميلهم الأوربى مما أضعف من تأثيراتهم فى الجماهير سياسياً ، وإن كانوا قد أثروا فى الصفوة فكرياً وقد شهد كرومر مولد هذا الحزب وأثنى عليه ، وعلى رجاله لأنهم من وجهة نظره — يرغبون فى التعاون مع الأوربيين على إدخال المدنية الأوربية إلى مصر(١) .

وكان ذلك غريباً عن الجمهور ، لكنه لم يكن فيه شىء من الغرابة عند الصفوة المتعلمة تعليما عاليا ، والتى تريد لمصر استقلالا ، وحرية نيابية(٢) .

---

(١) أدمس : الإسلام والتجديد ، ص ١٤ ، ترجمة عباس محمود العقاد ، القاهرة ١٩٤٥

(٢) هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ج ١ ، ص ٣١ . القاهرة ١٩٥١ .

وتبدو قيمة هـــذه الأحزاب ، والحركة الوطنية فى تحقيق ثلاثة أهداف :

الأول : انتقال الحركة الوطنية من مرحلة الجهود الذاتية ، والفردية إلى مرحلة الجهود الجماعية والشعبية .

الثانى : تجاوزت علاقات الحركة الوطنية بالدول الكبرى — مستغلة الخلافات الدولية — إلى الاتصال بكل الحركات العالمية المؤيدة للتحرر الوطنى والرافضة للوجود الاستعمارى .

الثالث : جذبت الحركة الوطنية عن طريق تلك الأحزاب أعداداً كبيرة من الشبان المثقفين ، والحرفيين ، على السواء ليصبحوا فيما بعد نواة الزعامة الشعبية لثورة سنة ١٩١٩ .

وهكذا تستمر الحركة الوطنية بروافد شعبية ، ومحافظة إلى أن ترتمى فى أحضان جماهير المجتمع المصرى ، وقواعد النضال المصرى وذلك عندما اندلعت ثورة مصر الشعبية سنة ١٩١٩ ، والتى أوجدت زعامتها الوطنية من بين صفوفها ممثلة فى « سعد زغلول » الذى خلص الحركة نهائيا من التأثيرات الجانبيـــة وانطلق بها فى رحاب المصرية فكان هـــذا التحول سنداً إيجابياً لمصر وهى تبحث عن ذاتها ، وتتضح شعبية ثورة سنة ١٩١٩ وعدم تبعيتها لأية قوة خارج الإطار الوطنى والشعبى والمصرية الصميمة « لسعد زغلول » من حادثة بسيطة تلك أن « محمد فريد » عندما رغب فى المشاركة الثورية لأحداث ثورة سنة ١٩١٩ ، وكان « لينين » قد اتصل به راغباً فى إنشاء علاقة بين الحركة الوطنية فى مصر ، والحركة الشيوعية بروسيا محاولا استقطاب الحركة المصرية التى تخلصت كما قلنا من السيطرة الأجنبية « عثمانية كانت أو « فرنسية رفض « سعد زغلول » هذا وفهم المخطط اللينينى من وراء هذا الاتصال ، وأشار إلى هذا فى خطبته

الشهيرة فى العمال التى أقيمت بمصر الحديدة أثناء الثورة وقال إن الثورة لا علاقة لها بالحركة الشيوعية ، وأن العمال المصريين لا تربطهم بالحزب الشيوعى رابطة »(١) .

ويتشكل « حزب الوفد » ليقود النضال المصرى لفترات تطول ، ويكون ملتقى الجماهير ، وتنشق عنه أحزاب « دستورية » و « سعدية » و « كتلة » ترى النضال من وجهة نظر مخالفة . لكن الكل يسير فى طريق البحث عن الذات ، وتحديد معالم الوجود المصرى ، وتحريره من أى سيطرة خارجية .

ولا تقل الحياة الاجتماعية تأثراً بمرحلة البحث عن الذات منها عن أى مقوم آخر ، فالدولة بإداراتها الحديثة ، واتساع مسئولياتها أتاحت فرصا عديدة أمام المجتمع المصرى ليلتحق أفراده المتعلمون بالوظائف العامة ، كما أن استصلاح الأراضى الزراعية ، ودخول الشركات الأجنبية هذا المجال قد أوجد بالتالى طبقة من الملاك الزراعيين ، والتفكير المستنير الذى دعا إليه بعض المصريين بدافع الوطنية المصرية الصميمة أوائل هذا القرن لإقامة صناعة النسيج بمصر هذه الصناعة التى كانت بحق تمثل خطوة على الاستعمار — عملت هى الأخرى على إيجاد طبقة الرأسماليين الوطنيين .

من هذه العناصر وعناصر أخرى اجتماعية ، واقتصادية ، وثقافية تشكلت فى مصر لأول مرة الطبقة الوسطى بمصالحها ، وطموحها وإفرازاتها الاجتماعية ، كما استقرت « الأرستقراطية المصرية » على أن مصر قد شهدت بوادر الانقلاب الاجتماعى فى اتجاهات الأحزاب السياسية والتى تتمثل فى اتجاهين : الأول ، يدعو إلى دولة دينية ، بينما الثانى يدعو إلى دولة

---

(١) عبد المنعم شميس : رحلة فى حياة مصر ، ص ٤٧ — كتاب الحديث — القاهرة .

عصرية ، وإلى مصر المستقلة تحت السيادة المصرية ، ومن ثم اهتم أصحاب الاتجاه الثانى بفصل الدين عن الدولة كما رأينا فى كتاب ، « الإسلام وأصول الحكم » ، وبتحرير المرأة ، ورفع الحجاب عنها ، وتعليمها وخروجها سافرا إلى المجتمعات العامة ، ومشاركتها فى الأحداث ، وهـذا نتيجة لما وجدناه فى كتابى قاسم أمين : « تحرير المرأة » ، و « المرأة الجديدة » وإلى جانب هذا وجدت حركات اجتماعية حرة مؤسسة على فكرة الإصلاح متأثرة بما حصل فى مصر سنتى «١٨٧٦–١٨٨٢»(١) .

وكنتيجة لكل تلك الفعاليات تبلورت التيارات الاجتماعية وأمسكت مصر بملامح شخصيتها ، وتوفرت لدى المجتمع المصرى عوامل التقـدم الاجتماعى ، وقد اعتمد هذا كله على ظهور الطبقة الاجتماعية المحورية تلك الطبقة التى أنضجتها ثورة ١٩١٩ وشكل منها « سعد زغلول » أول حكومة مصرية تولدت عن تجارب ثورية ، وبارك ظهورها دستور كفل لها الحكم ، والتشريع والتنفيـذ إذ قبل ثورة سنة ١٩١٩ كان الحكم موزعاً بين القوة الفعلية ، والقوة الشرعية أى بين (الإنجليز) و (القصر) وبعد الثورة بدأت المصرية المحورية ممثلة فى الارستقراطية القادرة ، والمتوسطة المثقفة تتولى إدارة الحكومات ، والمناصب الإدارية ، والمجالس النيابية وتحاول مخلصة أن تسهم بدور إيجابى فى التقدم المصرى ، وإلى هذه الطبقة يرجع الفضل فيما ظهر من ريادة فكرية ، وثقافية وفنيـة ، وقيادة سياسية ، وعسكرية فهى التى صاغت القيم الاجتماعية الجديدة ، واصطنعت الروح المصرى المعاصر ، وقدمت وقود الحركة الوطنية ، وظلت وفية لقضايا النضـال الوطنى حتى قيـام الجيش المصرى بحركته الباسلة سنة ١٩٥٢ ولا يعنى هذا عدم قيام هذه « الطبقة » بتقديم أفراد قد خضعوا لنفوذ « القصر » مرة والاستعمار أخرى ، فمالوا مع الملك ضد الشعب ، أو مع

---

(١) هيكل : فى أوقات الفراغ ، ص ١٠٧ ، طبعة ٣ ، القاهرة سنة ١٩٦٨ .

الاستعمار ضد الحركة الوطنية الناميـــة محاولين تهدئتها لحساب المستعمر والشيء الحقيقي أن هذه الطبقة الاجتماعية فيما بين سنة ١٩١٩ ، ١٩٥٢ قد حققت لنفسها وللمجتمع المصرى ازدهاراً ، ونضجاً اجتماعيين ظهر أثرهما فى نواحى الحياة المصرية الاقتصادية ، والسياسية وتركز النشاط الاجتماعى ذاك فى طبقتين :

أولاهما : وتمثل الملاك الكبار ، وأصحاب النشاط التجارى والصناعى (الرأسمالية الوطنية) وهذه الطبقة قد لعبت دوراً قيادياً فى تجميع النشاط الحزبى حول : « الأحرار الدستوريين » ، و « السعديين » ثم « الشعب » حزب صدقى ، وهى التى قامت بتغذية الحركة السياسية والاجتماعية بعدد وافر من الحكام ، والزعمـــاء السياسيين ، والمسيطرين على الحركة الاقتصادية .

ثانيتهما : طبقة المثقفين ، وصغار الملاك ، والحرفيين ، وكثرة من العاملين بالحكومة (موظفين — وعمال) وهؤلاء جميعاً هم الذين شكلوا القاعدة الشعبية ، والعقيدية للأحزاب ، والجماعات ذات الميول اليسارية واليمينية وفى مقدمة تلك الأحزاب والهيئات : « حزب الوفد » و « الحزب الوطنى » وجماعة « الإخوان المسلمين » و « مصر الفتاة » وبعض التنظيمات السرية ذات الميول اليسارية(١) .

فالأولى استنبتت فى أرض المجتمع المصرى الارستقراطية المصرية الحديثة والثانية أوجدت الارستقراطية الفكرية ، والثورية المستنيرة والرشيدة والحق أن المجتمع المصرى لم يستطع أن يفرز هذه الشرائح الاجتماعية إلا بعد نضال مرير مع القوى الاجتماعية الأجنبية والمتمصرة وكانت ثورته الشعبية

---

(١) يراجع فى هذا كتاب « تطور الحركة الوطنية فى مصر » للدكتور عبد العظيم رمضان ، الصفحات ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .

سنة ١٩١٩ قمة هذا الصراع ، وبداية هذا التحول الاجتماعى الذى صاغ المجتمع لفترة تاريخية ممتدة إلى أن شهد المجتمع تحولا اجتماعيا آخر بفعل عوامل مغايرة ، وفى إطار قوى اجتماعية مختلفة بنيـــة ونوعية ، وكمية .

** بين الذاتية والرومانسية :

عرفنا كيف حققت مصر لنفسها نوعاً من الوجود الاجتماعى ، والسياسى ، والفكرى خلال مرحلة معاناتها وبحثها عن ذاتها ، وقد تمكنت إلى حد الإعجاب أن تحدد ملامح شخصيتها الاجتماعية فى مواجهة بقايا مراحل الانفتاح البشرى ، وأن توجد لنفسها نظاماً سياسياً فى مواجهة الاحتواء الاستعمارى الخارجى والتسلط الداخلى وأن تعمق مفاهيمها الفكرية وتؤسسها على الرافدين :التليد النقى ، والجديد المتطلع ، وهكذا اكتشفت مصر وجودها المعاصر لكن — هذه المرة — بعقول ، وسواعد أبنائها وتكون « الرومانسية » فى الشعر تشكيلا وحتمية مرحلية وضرورة من ضرورات البعث ، والتحول ، والبحث عن الذات ، لأنها حينئذ تستجيب لدواعى المرحلة فى تحديد ملامح الذاتية ، والفردية التى تمثل لبنة البناء الاجتماعى الجديد ، وتصور وضعية العقلية فى تناولها لمشكلات الفكر المطروحة ، ومدى استساغتها للمعاصرة ، والحداثة وهى ضرورية تتربى فيها الشخصية تربية فنية ، وجمالية ، وشمولية لتقوى لديها القدرة على المواجهة ، والتحليل ، والتكوين ، والتشكيل.... ثم الخلق ، والإبداع ، وليس كالرومانسية فى الفن بعامة والأدب بخاصة بقادر على مثل هذا العطاء ، والإفادة ، فهى — شعرياً على الأقل تمكن الشخصية الشاعرة من التجريب ، والتحديث المستمرين ، وتجعل للشاعر توقا إلى القادم ، وشوقاً إلى الغريب ، وتمكن شعراءها من مزاولة كافة ألوان المطلق ، واللانهائى ، واللامحدود وتصطنع لهم عالماً يفتشون فيه عن الحقيقة ، والوجود ، وتسلحهم بأسلحة الدهش والقلق ، والشوق ،

والحنين ، وتغرس فى أعماقهم قدرة التعامل مع الكلمات ، والأصوات ، والألوان والطعومات ، فيعودون بعد رحلتهم معها ، وقد ازدادوا ثقافة وخبرة ، ورؤية إبداعية .

والرومانسية ليست قوة اجتماعية ، أو سياسية أو دينية لتستمد ضغطها من هـذه القوى ، لكن سيطرتها تكمن فى قـوتها الفنية .. وهى بهذا ليست منعزلة عن الواقع ، أو متعالية عن هموم المجتمع . وآماله فى المستقبل ، بل إن سيطرتها من خلال الوجدان المبدع ، والعواطف الغلابة ، تكون قادرة على التقاط أدق نبضات المجتمع وأشواق واقعه نحو المستقبل ، ثم تختزن هذا لتقديمه مرة ثانية فى شكل فنى تبدو معه الرومانسية مؤثرة كل التأثير ، لأنها — حينئذ — تكون قادرة على تحسس مسار المستقبل تحسسا لا يخطئه صدقها الفنى ، ومن ثم تعطى فرصة إنسانية ، واجتماعية وتاريخية ليصحح الإنسان والمجتمع والتاريخ المسار أولا بأول ، ومن هنا كانت حتمية وضرورية لتتوازن مع المرحلة التاريخية توازنا فنيا ، وفكريا ، وتكون المرحلة التاريخية قادرة على تصحيح الواقع الاجتماعى ، والإنسانى للمجتمع المصرى الباحث عن ذاته فى المستقبل أولا بأول .

من هنا نرى أن « الرومانسية » بدأت فى مصر تلبية لحاجات اجتماعية وإنسانية ، وفنية ، وكانت غالبيتها انكفاء على الذات المصرية والشخصية الاجتماعية ، والإنسانية ، قاصدة إلى إلهاب الأجيال الجديدة ، وفتح مجالات الإبداع ، والخلق أمامهم وذلك بما قدمته من صور ملونة وتعبيرات فرحة مؤملة فى مثل أعلى ، وحياة أجمل ، وحرية أشمل . أما الشعر الكلاسيكى فقد بقى فى عهدته التعبيرات القوية ، والموسيقى الصاخبة ، والألفاظ المعجمية محافظاً على مضمونه الرئيسى فى السياسة والمناسبات والفخر والرثاء والمديح .

أى أن الشاعر « الكلاسيكى » ما زال ينكفئ على الشخصية المرموقة يمدحها أو يرثيها ، ويتحين فرص المناسبات ليترضاها ويتقمصها ويعيشها وما زال شاعر الكلاسيكية خطيبا فى المحافل السياسية ،والقومية والاجتماعية ، ويستعان به فى تجميل برامج تلك المحافل وفى هذا الإطار — أيضاً — نستطيع القول بأن التيار « الرومانسى » يظهر فى الأدب ، والشعر بخاصة حينما يكتشف الفنانون المثقفون المفارقة الشاسعة بين المثل المنشودة ، وواقع الحياة المتردى فى بؤرة التخلف الاجتماعى ، والاقتصادى ، والفكرى ولا سيما فى التحولات الاجتماعية ، مع وجود إحساس ووعى بالوضعية الإنسانية لتلك المناحى الاجتماعية ، وحينما يكون الشاعر متهالكا أمام شخصية ممدوحه لاهثا وراء استرضائه طارحا شخصيته ، وإنسانيته قابعاً فى زاوية من زوايا ذاته هنا يصبح الأدب بحاجة إلى شكل جديد ، وحاجة حقيقية لتغيير أساليبه وأدواته . وهكذا تكوّن « جنين رومانسى » فى رحم المرحلة التى أخذت مصر فيها تبحث عن هوية لها أو شخصية تواجه بها متطلبات صراعها الحضارى ، والسياسى والاجتماعى .

وإذا كان هؤلاء الذين احتفلوا بميلاد « الرومانسية »لم يمتلكوا حلولا ليصطنعوا بواسطتها حياة جديدة واضحة القيم والمذاهب ، فإن أهم إثمار قد حققته خصوبة الأرض فى إتجاههم هو التغيير ، والثورة على التقاليد الفنية والاجتماعية ، ثم تلك الحركة الثورية التى أحدثوها داخل الذات الإنسانية نفسها فأحالوا كل شىء إلى حركة متمردة على الثبوتية ، وإلى شاك رافض للوضعية والسلفية المطلقة فبدا كل ما ليس مقدسا ، وما ليس قابلا للمناقشة قابلا للجدل ، والمنطق ، أى أصبح كل شىء قابلا للتغيير على الرغم من أن « الرومانسية » شكل فنى عاطفى استنبتته ظروف ، وبيئات إنسانية وعالمية ، لكنه — أيضاً — فى مصر تجديد لأدبها ، وإنشاء لأدب مصرى السمات ، مصرى الأحداث مصرى الروح يتأكد به طابع المصرية فى

التعبير ، والتصوير . . (١) . وإذا كان هذا تعليل « تيمور » لظهور الفن القصصى الرومانسى على يد « هيكل » فهو تحليل للموقف الاجتماعى ، والإنسانى للمجتمع المصرى ، وهو يقبل – بخاصة – على إنشاء شعره الرومانسى ، وإقباله على قراءته وتذوقه ، واحتضانه لظواهره حتى غدا تيارا ، ومرحلة فنية من مراحل التاريخ الفنى للأدب بمصر ، والعالم العربى ، ولا يقلل من قيمة هذا التيار ما وصل إليه من نتائج وسلبيات الاستغراق فى العاطفة الفردية ، والانكفاء على الذات ، والتجريد ، والتعبيرات الخيالية المهومة والارتفاع عن الواقع المعيشى ، لأننا ونحن نؤرخ للمجتمع المصرى ، ونبلور عوامل النهوض بشخصيته قد وجدنا أن الرومانسية مطلب حضارى ونفسى يساعد كثيراً ضمن عوامل أخرى على بلورة هذه الشخصية فى مراحل ترشيدها وأفاويق ظهورها ، وأما ما طرأ عليها من سلبيات فيما بعد فلكى تفسح المجال لتيارات أخرى واقعية ، ورمزية وتأثيرية ليتحقق بهذا تواصل الحركات الفنية ، وتوالدها وتتابعها ، وحتى يكون الجديد مسلحا بوعى يتفادى به سلبيات القديم .

ولم تتشكل الرومانسية فى مصر من فراغ بل استقت حيويتها وحياتها وأساسها الفكرى ، والجمالى من ينابيع متعددة الاتجاهات ومتأثرة بروافد غذتها ، وأمدتها بخصائص طبائعها الفنية والفكرية هذه الروافد وتلك الينابيع تتحرك فى إطارات ثلاثة :

أولا : تيار الريادة ومدرسة العقـــاد ، والمازنى فى النقد ، وشكرى فى الشعر ، **ثانيا** : .. تيار التجربة المهجرية ، والإنسانية فى جماعة المهجر : ومعبر اللقاء الفنى بين الشرق والغرب ، **ثالثا** ... تيار التأصيل والإبداع

---

(١) محمود تيمور : الشخصيات العشرون ، القاهرة ، سنة ١٩٦٩ .

الرومانسي المصرى فى جماعة « أبوللو » وشعرائها : أحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) محمد عبد المعطى الهمشرى (١٩٠٨ ـ ١٩٣٨) ، على محمود طه : (١٩٠٢ـ١٩٥٣) ، إبراهيم ناجى : (١٨٩٨ـ١٩٥٣) .

أما الأول : وهو تيار الديوان فقد نشأ فى أحضان أرهاص وتنظير فى « عاشق » قدم به خليل مطران خليل : (١٨٧٢ـ١٩٤٩) لديوانه سنة ١٩٠٨ وفيه يدعو إلى تطعيم الشعر العربى بمذاهب وصور الشعر الغربى ، كما أخذ ابتداء من سنة ١٩٠٠ يدعو إلى تشكيل شعرى جديد ، وصور شعرية أكثر إيحاء بالذات الشاعرة وقدرة على إيجاد وحدة عضوية للقصيدة ، وقد قدمت قصائده الشعرية التى نشرها بديوانه الأول سنة ١٩٠٨ أمثلة ، ونماذج لشعر رومانسى جميل . وخليل مطران ليس رومانسياً خالصاً ، ولكنه ـ بهذه الدراسة ونماذجها ـ مهدها ، وذلك بما أظهر فى شعره من نزوع نحو المثالية الهادفة إلى رقة المشاعر الاجتماعية الإنسانية ، واهتمامه بالعنصر الخيالى عطاء لصوره الشعرية ، وهيامه بالطبيعة ثم دعوته فى أواخر بواكير القرن العشرين إلى التجديد ، والتجريب(١) .

وتعد هذه التنظيرات الأرضية الخصبة التى ازدهرت عليها أفكار ونظريات « مدرسة الديوان » فى « الأدب والفن » .

وقد يثار جدل حول اهتمام « خليل مطران » باتجاهه الرومانسى فى الشعر إلى أنه لون من الانعتاق من سيطرة التراث العربى وقيمه الأصيلة حيث يحاول الشاعر التقليل من دور هذا التراث وذلك بالاتجاه إلى الحاضر ، ومعانقة الطبيعة ، وإحلال الوطنية محل القومية ومحاولته الثورة على الشرائع ، والتقاليد ، والأعراف الفنية الموروثة واعتبار الشعر الغربى

---

(١) يراجع فى هذا : مقدمة ديوانه الأول الصادر سنة ١٩٠٨ ، وأيضاً مقالاته فى المجلة المصرية ، وبالذات عدد ١٦ يونيو سنة ١٩٠٠ .

مثلا أعلى يحتذى لكن هذا مردود بطبيعة المرحلة والإحساس العام بقيمه ، وأثر مثل هذا الاتجاه ، ثم حتمية الوجود الفنى للشعر الرومانسى تلبية لحاجات اجتماعية وفنية .

وأخيراً فإن تيار الديوان كان يتزعمه ثلاثة عرفوا بأصالتهم القومية ، ودفاعهم عن عروبتهم فكرياً ، وفنياً ، وتاريخياً ، ومع ذلك فإن الديوان قد فتح أمام الشاعر العربى والمصرى طرقاً للتعبير ، والتصوير ، وجدد له وسائله ، ولغته ومضامينه ويكون هؤلاء الثلاثة : إبراهيم المازنى : (١٨٩٠–١٩٤٩) ، عبد الرحمن شكرى : (١٨٨٦–١٩٥٨) ، وعباس محمود العقاد : (١٨٨٩ – ١٩٦٤) رواد هذا التيار ، وأساتذة مدرسته ، ونقاده وشعرائه ، ويكون عام سنة ١٩٠٩ بداية طريق الرافد المثقف « للرومانسية المصرية والعربية » ويجيء الديوان الذى صدر فى جزءين وفى النية أن يجيء فى عشرة أجزاء ، خلاصة لأفكار وآراء الصاحبين « العقاد » و « المازنى » وموضوعاً للأدب بعامة ، والتبشير بالمذهب الجديد بخاصة وهو « مذهب إنسانى ، مصرى ، عربى ، إنسانى ، لأنه من ناحية ثمرة لقاح القرائح الإنسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة ، ومصرى لأن دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لأن لغته العربية فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت فى لغة العرب منذ أن وجدت ، إذ لم يكن أدبنا الموروث فى أعم مظاهره إلا عربياً بحتاً يدير بصره إلى عصر الجاهلية » .

وقد اختص « العقاد » نفسه بدراسة نماذج لشوقى و « مصطفى صادق الرافعى » واختار « المازنى » لنفسه نماذج من شعر « شكرى و « مصطفى لطفى المنفلوطى » ومن خلال هذه الدراسة لبعض نماذج لهؤلاء الشعراء والكتاب ، وقد تم اختيارها لما تتضمنه من مخالفات لمبادىء تيار الديوان ، وأهدافه وقد انتهت الدراسة إلى ما فى بعض الشعر التقليدى

من تهافت ، وفقر ، وسطحية ، ودعوا إلى شعر يحقق ما يصبوان إليه ، وقد أجمل العقاد رأى الديوان النقدى نظرياً فى المقدمة حيث يقول : « وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع ، وإنما همهم أن يتعاطفوا ، ويودع أحسنهم ، وأطبعهم فى نفس إخوانه زبدة ما رآه ، وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه ، وإذا كان كذلك من التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر ثم تذكر شيئين ، أو أشياء مثله فى الاحمرار ، فما زدت على أن ذكرت أربعة ، أو خمسة أشياء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك ، وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال ، والألوان فإن الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال ، والألوان من نفس إلى نفس .

ويستمر قائلا : « وصفوة القول أن المحك الذى لا يخطىء فى نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره ، فإن لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور ، والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ، ووجداناً تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر ، فذلك شعر الطبع القوى ، والحقيقة الجوهرية ، وهناك ما هو أحقر من شعر القشور ، والطلاء وهو شعر الحواس الضالة ، والمدارك الزائفة ، وما إخال غيره كلاماً أشرف منه بكم الحيوان الأعجم » .

فأمامنا دعوة إلى شعر الطبع ، والشعور ، شعر القوة الكامنة فى كل واحد منا ، وهى القوة الإنسانية ، شعر الأعماق المجهولة فى كل واحد منا حتى يمكننا أن نتعرف عليها فتنشىء عالماً إنسانياً جديداً ونتبنى لغة تردنا إلى فطرتنا الأولى ، وينابيع إحساساتنا شعر الأمل الضائع لدى

كل واحد منا لنمساك به علامة على طريق مستقبلنا ، شعر الأحزان الكبيرة التى تصقل المعدن الإنسانى لدى كل واحد فينا . لكن هذا التيار بنظرياته النقدية التى كانت بالغة الجدة وقتئذ وما زالت تؤثر فى حياتنا النقدية حتى الآن — لم نستطع أن تقدم النموذج الذى يشهد على تفوق شعرائها ، ويسدد من القيم الشعرية النقدية ، ودواوينهم التى صدرت ابتداء من سنة ١٩٠٩ بصدور « ضوء الفجر » لشكرى الذى صدر له سبعة دواوين ، والعقاد الذى صدر له ديوان : « هدية الكروان » سنة ١٩١٦ والجزء الأول من ديوان المازنى سنة ١٩١٤ والثانى سنة ١٩١٧ ، وكلها لا تحقق الطموح النظرى لتيار الديوان وإن كانت تعطى إرهاصاً بشعر مصرى عربى قريب من الأشكال الفنية الرفيعة المستوى(١) ، ويكفى هؤلاء أنهم قدموا شعراً ينبض بتجربة عقلية وفلسفية فى غاية الجمال ، وقوة التأثير فى الصفوة الممتازة من الطبقة المثقفة التى لعبت دوراً هاماً فى التأصيل للرومانسية فيما بعد، ولولا فقر شعر هؤلاء فى مجال التجربة الإنسانية والشخصية لكان شعرهم خير نموذج لما ذهبوا إليه من آراء وما بشروا به من فن شعرى صادق التعبير عن الإنسان لكن ما انفرد به كل واحد منهم من لون شعرى خاص جعل لهم تأثيراً فى قدرة الحركة الرومانسية على الإثمار ، والعطاء حيث عرف شعر « المازنى » بتياره المتدفق شكوى ، وأنينا ، وتمرداً ، وتشاؤماً وعرف شعر « العقاد » بتياره المتموج فكراً ، وفلسفة ، وتعميقاً للأحداث ، وأما « شكرى » فقد جمع بين التيارين ، واحتفظ بهما وسلط أحدهما على الآخر(٢) .

---

(١) يراجع فى هذا إلى الديوان ومقدمته ، طبعة دار الشعب ، وساعات بين الكتب سنة ١٩٢٧ للأستاذ عباس العقاد ، وشعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ، طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر ، والشعر العربى المعاصر للأستاذ الدكتور طاهى مكر .

(٢) د. محمد مندور : الشعر المصرى بعد شوقى ، ج ١ ، ص ١٠٠ ، طبعة نهضة مصر .

ويعتبر « شكرى » بحق المؤسس الفنى لهذا الاتجاه . وذلك لغزارة إنتاجه ، وعمق رؤيته الشعرية ، وقربه من ينابيع الشعر الصافية وقد اعترف (العقاد والمازنى) بتأثيره على الحركة الأدبية واعترف المازنى — على الرغم من الخصومة الشديدة بينهما — بأنه أول من أخذ بيدى ، وسدد خطاى ، ودلنى على الحجة الواضحة . وأننى لولا عونه المستمر لكان الأرجح أن أظل أتخبط أعواماً أخرى ولكان من المحتمل إجداً أن أضل طريق الهدى(١) .

ولولا ما أحاط هؤلاء الثلاثة من حقد شخصى وفنى ، ومن تضارب فى العلاقات الإنسانية فيما بينهم لكانوا مدرسة فى النقد الأدبى المصرى تخرج فيها جيل من النقاد الموهوبين الذين يمتلكون القدرة على مواصلة العطاء ، والتأثير فيمن بعدهم ليتحقق للنقد فى مصر نهضة تفلسف النقد ، وتنظر له ، وذلك بأثر من النقد التطبيقى الذى نضج على يدهؤلاء الثلاثة . وتجميعا لما قيل حول « الرومانسية » فى مصر ، وخلفيتها الاجتماعية ، والإنسانية وظهور تيار « الفرسان الثلاثة » فى الأدب والنقد نقول : « إن ما قدمه « خليل مطران» من نماذج شعرية قليلة اتسمت بالعذوبة ، والتجربة الإنسانية وما كتبه « مصطفى لطفى المنفلوطى » (١٨٧٣ — ١٩٢٤) من مقالات نثرية فى كتابه : « النظرات » وكتاب : العبرات » ومجموعة قصصه المترجمة والموضوعة استجابة للقلق المصرى ، والعربى الذى تملك الأجيال — وقتئذ — المتمردة على القيم الموروثة فى مواجهة قيم الغرب الوافدة

---

(١) د. محمد مندور : إعترافات العقاد والمازنى بفضل شكرى فى كتاب « النقد والنقاد المعاصرون » ، ص ٥٢ — ٥٤ ، طبعة دار نهضة مصر .

مما قوى تيار « الرومانسية » ، وأطلق تيارها المفعم بالكآبة ، والأحزان والامتزاج بالطبيعة الملجأ الآمن للإنسان .

لقـــد تحسس كل من « مطران » و « مصطفى المنفلوطى » النبض الاجتماعى ، واللهفة الإنسانية ، ثم ما كان فى العالم كله من فن ، وأدب ينبع من الأحاسيس الإنسانية ، وما سمعته الأُذن العربية المهاجرة من أشعار غريبة تتسم بالعواطف الإنسانية ، أقول كل هذا شكل الأرضية والخلفية التى نبتت عليها ، واستندت إليها « الرومانسية » الوليدة فى عالم الأحزان : العربى ، والمصرى .

وما يكاد العقد الثانى من هذا القرن يطل حتى نرى « تيار الديوان » بفرسانة الثلاثة أمام نماذج فى الشعر والنثر تلفت النظر إلى التحليـــل ، والنقد ، والتشريع ، فابراهيم المازنى « يهاجم بكائيات المنفلوطى » ويهدم « شكرى » و « العقاد » يتولى شعر «شوقى» بالدرس ، والبحث ومن هنا يولد تيار نقدى يقوى ويشيع ويقنن للتيار « الرومانسى الوليد » ، لكن هذا التيار النقدى مدين للقراءات فى الأدب الانجليزى من جانب « العقاد » و « شكرى » ومدين أكثر لجهد « شكرى» الشعرى حيث أخرج «دواوين سبعة » وجهده النقدى فى مقالاته ، والمقدمات التى كتبها لدواوينه وبخاصة الثالث ، والخامس ، وجهده النثرى الرائع فى كتابيه : « الاعتراف » سنة ١٩١٦ ، و « حديث أبليس » سنة ١٩١٧ ، ففى هذين الكتابين استطاع أن يتعمق النفس الإنسانية التى أخذت فى صراع مع ما ظهر على الساحة الاجتماعية ، والفكرية ، والحضارية من تناقض فاستخرج من الدفائن النفسية كل ما هو كامن فى الأغوار السحيقة من الكراهية ،

والأحقاد واليأس ، والأحكام الشمولية الرافضة دون مبرر ، غير أنه – لظروف مرحلية ، وفنية لم يتمكن من النجاح الكامل فى الغوص إلى الحقيقة الروحية والعاطفية فى الشعر ، وذلك بسبب الأدوات الشعرية التى لم تكن فنياً ومرحلياً – قد وصلت إلى الشفافية ، والاستسلام ، والطواعية بحيث تمكن الشاعر من الخوض ، والغوص فى أعماق لم يرتدها الشعر بعد ..(١) .

أما « العقاد » فقد حاول أن يمنح « التيار الرومانسى » عمقاً فلسفياً وفكرياً فلم ينجح نجاحاً بعيداً حيث أنه قد طوع المعجم الشعرى ، والصور الشعرية لآرائه الفكرية ، أو نبضات عقله الشخصى ، ولم يحاول أن يتوسل بهذه الفلسفة ، وتلك الخصوصيات الفكرية للغوص فى ينابيع النفس لاستخراج ردود الفعل التى هى إحدى معطيات الحياة – الإنسانية فى مرحلة زمنية معينة ، ويصبح الشعر وحده القادر على البوح بها ، واستحراج دفائنها .

غير أنهم فى مجموعهم ، وبسبب إنتاجهم قد حققوا على صعيد الشعر – انتصارات فنية مهمة وبهم انعتق بل انفلت الشعر من إسار السلفية والتراثية ، واغتنى فيه عنصرا الخيال ، والعواطف الإنسانية كى تتيقظ حواس التجربة الإنسانية ، وتنبض معالم الصورة الشعرية

الثانية : حركة شعراء المهجر :

الصوت القادم من المهاجر الأمريكية (١٨٨٣ – ١٩٣١) ويحمل « إرهاصاً رومانسياً » هو صوت « جبران خليل جبران »! حيث صدرت

---

(١) د. الطاهر مكى : الشعر العربى المعاصر ، ص ١٢٥ .

له فى « نيويورك » مقالة بعنوان « الموسيقى » سنة ١٩٠٥ يعبر فيها عن « رمانسية » تمتلك أداة فنية جديدة ، وتبشر بقيم اجتماعية متطورة ، ثم صدر له سنة ١٩٠٦ قصة : «عرائس المروج» و « الأرواح المتمردة سنة ١٩٠٨ ، وهى أعمال تصور الروح الإنسانى المعذب الواقع تحت وطأة القيود المفروضة دون إرادة ، أو إرادة اختيار فحطمت كبرياء الإنسان ، وشبوخه ، ومزقت إرادته ووضعت أمامه الحجز ، والعوائق ليظل حبيس وجوده المكانى ، والزمانى ، والنفسى ، وسدت أمامه نوافذ الخير ، والعدل ، والحق ، والحب ومنابع الجمال و « جبران » يحاول من قصتيه تخليص الإنسان من تلك القيود ، وهو لهذا ينتصر للحب دائماً ، وللعدالة دوما ، وللحرية باستمرار ، ويرفض بعنف تحكم كل القوى التى تبطش بالمصير الإنسانى وتتحكم فى وجوده وعنده أن الماضى هو عدو الإنسان القابع بداخله والمستقبل هو الأمل الذى يتراءى له دائما .

وتتأكد دعوة جبران تلك برفيق شارك هو الآخر فى نشر هذه القيم الجديدة ، والتمرد الساخط على كل التقاليد الاجتماعية الموروثة ، المؤسسات التى تعيق رحابة الوجود الإنسانى ، ووطأتها على الروح والوجدان ، وهكذا عمل « أمين الريحانى » : (١٨٧٦ — ١٩٤٠) وهو فى أمريكا الشمالية على إصلاح الوضعية العربية ، وبأن العالم العربى فى حالة إلى إصلاح حذرى فى الفكر ، والروح ، معلنا هذا فى خطبه وكتاباته(١) .

ويدعم هذا دعوة جزيئة « لميخائيل نعيمة » سنة ١٨٨٩ يدعو فيها إلى تجديد شامل ، وجذرى فى اللغة الشعرية ، والأوزان والأخيلة ، والمعانى ،

---

(١) يراجع فى هذا كتاباه : « المكارى والكاهن » سنة ١٩٠٤ ؛ و « المخالفة الثلاثية » سنة ١٩٣٠ .

ويحدد للشعر هوية ، وغاية ، ووظيفة وذلك بمقالات نشرها فى مجلتى « الفنون » و « السائح » فى نيويورك ، ثم جمعها بعد ذلك فى الغربال سنة ١٩٢٣ .

ويقوى هذا التيار بصدور أعمال كل من « أمين الريحانى » الجزء الأول من الريحانيات سنة ١٩١٠ ، والثانى — والرابع سنة ١٩٢٢ ، وهى مجموعة مقالات فى الفن ، والحياة : والثورة وموقف الريحانى ، والجزء الثانى يضم تجارب الشعر المنثور ، وتصدر لجبران : رواية « الأجنحة المتكسرة » سنة ١٩٤٢ ومجموعة « دمعة وابتسامة » سنة ١٩١٢ وقصيدته الطويلة : « المواكب » سنة ١٩١٦ ثم مجموعته « العواطف » سنة ١٩٢٠ ، (والبدائع والطرائف) سنة ١٩٢٣ .

وقد استمر هذا الإنتاج يغذى روح التمرد ، ويطالب بتغيير فى الأدوات الشعرية حتى تكون أكثر طواعية ، ومرونة للتيار الرومانسى الجديد وبهذا الإنتاج تشكلت الأرضية ، والخلفية لحركة شعراء المهجر تلك الأرض التى تنبت فيها الدعوة الجريئة إلى الشعر المنثور وهذه الخلفية التى ساهمت فى بلورة الاتجاه الفكرى ، والفلسفى ، والاجتماعى ، والنفسى لتيار المهاجرين ، والتى وضحت خطوطها عبر مرحلة تاريخية كان القرن التاسع عشر مسرحاً لصراعاتها العنيفة بين قوى متباينة : سياسية ، ودينية واجتماعية ، واقتصادية ، وعرف الشرق العربى ألواناً من مظاهرها حيث المذابح بين الدروز ، والموارنة ، وبين المسلمين ، وبين الأرمن ، يرافق هذا تطور فى أساليب الحياة ، وتفتح فى منابع التفكير ، وظهور طبقات اجتماعية طموحة ، ووجدان عربى يتطلع إلى رقى فى التصوير ، والتعبير ويتميز بأحاسيسه المتدفقة وتذوقه لما حوله ، ومن هذا التناقض الحاد بين التمزق ، والاستبداد ، والتقدم والطموح . . ثم الانهزامية ، والقنوط نهاية لهذا الصراع تكونت طبقة المهاجرين إلى « مصر » بقلة ، وإلى أمريكا

الجنوبية ثم الشمالية بكثرة ، وانطلقت جموعهم رفضاً لهذا الصراع ، وجرياً وراء الرخاء ، والأمن « وكلهم يطوون جوانحهم على مرارات الوطن الأم ، ترعبهم خيالات الأمس ، وعذاباته ، من الجوع وخوفه ، والتعصب وحماقاته ، والإرهاب وقيوده ، والخوف ورعبه ، ويتطلعون إلى مجتمع آمن يوفر لهم لقمة العيش ، واطمئنان النفس ، وحرية الحركة والقول » (١) .

هنا فى « مصر » أثروا الحركة الأدبية بعامة ، والصحافة بخاصة وهناك فى « مهاجرهم » عاشوا — مرحلياً — فترة تأزم وقلق ، واضطهاد و« فكرياً » أفادوا « لغوياً » ، و« ثقافيا » وصاغوا ما استفادوه شعرا فى أشكال تتفق وبيئاتهم الجديدة لكن بلغة وروح عربيين ، وأخذوا كأفراد ينشئون شعرا يصورون فيه حياتهم الجديدة ومعاناتهم معها ، ويلقطون بعفوية واستسلام صور تلك الحياة حتى إذا شكلوا فى مجموعهم وجداناً عربياً واحداً فى إطار الغربة والمهجر سعوا إلى تشكيل الروابط التى تقوى صلتهم بالوطن الأم تراثا ولغة ، وفكراً ، وألماً ، وأملا .

ثالثاً : جماعة أبوللو :

الحركات الأدبية ، والتواصل الفكرى ما هى إلا حلقات ينبض بعضها فى أثر بعض ، ويحمل السابق منها « جنين » اللاحق ويبشر الأول بالآخر ، ويرهص الماضى بالقادم ، وهكذا كانت حركات : « الديوان » و« المهجر » « وأبوللو » فكل واحدة منها قد قوت ، أو دعمت ، أو أنتجت الأخرى حتى تشكل من جميع تلك الحركات مسيرة التطور الأدبى ، والنقدى للأدب العربى ، حتى الظروف المحيطة ، والعوامل المؤثرة هى الأخرى

---

(١) د. الطاهر أحمد مكى : الشعر العربى المعاصر ، روائعه ومدخل لقراءته ، ص ١٠ دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٨٠ . وهو مرجع أساسى فى تناولى لروائد الرومانسية المصرية .

تشابهت بل اتفقت فى كثير من الحالات فالضياع الذى عاشه المجتمع المصرى ، والتمزق الذى عانت منه الشخصية المصرية والبيئة التى عاشت عليها صراعات فكرية عميقة بحثاً عن الذات ، والخلاص واستشرافاً للاستقرار كل هذا كان إطاراً ظهر بداخله تيار الديوان ليستخلص أقوى العناصر فى تكوين الشخصية ، وتحديد هوية المجتمع المصرى وتلوين الوجدانية المصرية بما تتيح لها أن تبدع أدباً يعبر عن ذاتها .

وأيضاً كانت الظروف الاقتصادية ، والاجتماعية التى اكتنفت النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ووقوع أفراد المجتمع العربى فى قبضة المرابين الأجانب إضافة إلى الاستبداد الداخلى ، والتسلط الخارجى فهاجر كثيرون من مواطنى الشام إلى « أمريكا » يتطلعون إلى مجتمع آمن ، ولم يكن هذا محققاً ، ومتاحاً ، لأن « المهاجرين قادمون من دول مختلفة ، ويمثلون قوى دينية متباينة باستثناء « الموارنة » الذين يجدون من « الكاثوليك » العون والتعاون نجد المذاهب الأخرى قد وجدت عنتا وتعصبا .

أما المسلمون فإنهم قد عاشوا بين « مذاهب دينية واتجاهات عقيدية ترى فى الإسلام عدواً سيستفحل أمره ، ويهدد الوجود الدينى لهم فأمعنوا فى الاضطهاد ، والتعصب » .

فكان شعراء المهجر أكثر حساسية فنياً ، وفكرياً ، واجتماعياً لكل هذا فتألفوا ، وتآزروا وكانت رابطتهم الأدبية إحدى ردود الفعل دفاعاً وولاء للوطن الأم ، ودفعاً للأدب العربى إلى رحاب العالمية ، والإنسانية و« جماعة أبوللو » هى الأخرى كانت نتاجاً لظروف متشابهة وإن اختلفت فى بعض النواحى .

ففى أعقاب وفاة « سعد زغلول » سنة ١٩٢٧ ، وتولى « مصطفى النحاس » سنة ١٩٣٦ ، « الحكم » والحزب تعاون « القصر » الرافض

للحياة الديمقراطية السليمة — والاستعمار — الرافض للجلاء والحرية — على ضرب الحركة الوطنية ، وإضعاف « الوفد » باعتباره « الممثل الثورى للجماهير المصرية ؛ وقد استطاعا معا ، أو منفردين — فالمصلحة واحدة التعاون مع الحكومات الأقلية صاحبة المصلحة — أحياناً — مع هذا التحالف أمثال : « محمد محمود » صاحب حكومة اليد الحديدية » (١٩٢٧ — ١٩٢٩) و « إسماعيل صدقى » صاحب حزب الشعب » وعدو دستور سنة ١٩٢٣ : (١٩٣٠ — ١٩٣٥) ، وأمام الضعف الحزبى وإقبال الجماهير على حزب الأغلبية ، حكمت مصر حكماً شمولياً ، مباشراً متوسلا البطش ، والقهر ، والاستبداد لدرجة المعاناة وإحساس كل فرد بأنه يعيش فى سجن كبير يسع الأمة كلها ، لكن رد الفعل المصرى كان عنيفاً هو الآخر ، فأمام تكميم الصحف ، واضطهاد الحريات ، انتشرت الاجتماعات السرية وطبعت المنشورات الثورية ، وأذيعت بين الناس ، ونظمت مقاطعة البضائع الإنجليزية (١) .

وتشهد الفترة من سنة ١٩٢٨ وحتى نهاية الأربعينات عنف الضغوط ، وعنف المد الثورى وعنف المقاومة . وتشكل فى مصر قوى يسارية ويمينية متطرفة ، وكلها تؤكد على حق مصر فى أن تعيش ، وتستمر وهى مسلحة بعقائد الحق ، والعدل ، والحرية وكان نتيجة لكل هذه الضغوط أن شهد المجتمع المصرى ظواهر الاغتيالات السياسية وسيلة للرفض ، والتمرد على السلطات المطلقة أى أن الانحراف السياسى والحكم الفردى ، والسلطة الشمولية لابد أن تنتج ظواهر منحرفة .

وفى الدول التى تحكم بالنظام الفردى تكون خاضعة خضوعاً مباشراً لأهواء هذا الفرد ، ويمارس معها ألواناً من القيادة أبسطها تتصف به ويكون لها مدلولا هو قيادة القطيع لكن بذكاء ، وبعصا سحرية تتراءى فيها مصلحة

---

(١) د. عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر سنة ٦٩٢ .

المحكومين من أكل وشرب ... وكلأ مباح فيكون الاغتيال السياسى —على الرغم من كراهية ومقت القتل ومع أن البندقية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون طرفاً فى حوار — حلا منحرفاً هو الآخر ، لأنه — فى نظر القاتل — لا يقتل إنساناً — فهذه جريمة — بل يسقط نظاماً مرتبطاً بهذا الفرد لكن التسامح المصرى يظهر دائماً وقت الشدائد ، ويظهر فى تيارات فكرية ، وفنية حيث تكون « الحرية » فى الأدب ، والشعر ، والنقد ومنبر « أبوللو » مخرجا لمصر من أزمتها ويكون الشعر وسيلتها فى ترقية الإنسان المصرى ، وتوجيه الجهد الفنى للشعراء توجيهاً شريفاً ونبيلا ، وتصبح الرومانسية « التى ذاعت على ألسنة الشعراء ، والتى امتلأت بها صفحات مجلتها ؛ أنشودة الشباب الحالم برؤية مستقبل بلاده محرراً، وزاهراً، ومشرقاً وتكون قادرة — أيضاً — على امتصاص كوامن الأحقاد، والكراهية والقلق من نفوس الشباب هذا بالإضافة إلى دورها فى التغنى بالحب ، والتسامح ، والعزة والكرامة الشعبية ، وإشاعة البهجة ، والسعادة الإنسانية وتجسيد الأحزان النبيلة التى تطهر القلب وتمسح بيد الحنان على الأرواح .

وسواء لدينا أكانت هذه « الجماعة» قد تشكلت بإيحاء من الملك فؤاد « ورئيس وزرائه : (إسماعيل صدقى) لإيجاد مهادنة بين شعرائها و « بين القصر »(١)؟؟. أم أن «أحمدزكىأبو شادى»وحده هو الذى أوحى بهذاالمعنى بسبب قصائده التى مدح بها الملك فؤاد «و « فاروق « ومنها قول أحمد زكى أبو شادى للملك فؤاد : —

---

(١) د. محمد مندور : الشعر المصرى بعد شوقى ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، نهضة مصر ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ .

ضجت لرحمتك البلاد وأعولت أين العظيم المستبد العادل
خذ أنت بين يديك كل زمامها ماكان غيرك فى العظائم جائل

أو قوله مخاطبا إسماعيل صدقى :

أيخذلنى دهرى وأنت مناصرى ويغمطنى قومى وأنت، زعيم

والحق أن كل هذا لا يخرج عن دائرة المجاملة الشخصية من شاعر ولا تدل على موقف سياسى ، أو فكرى ، أو أنها « نزوات وقتية على عهدنا بأبى شادى الذى لم يكن يستقر على حال من القلق ، وبخاصة وأننا نطالع فى ديوانه الآخر « فوق العباب » ص١٠ قصيدة أخرى تحت عنوان : « إلى الزعيم الأكبر » وقدمها الشاعر بقوله « حيا بها الشاعر دولة مصطفى النحاش باشا » ويستهلها بقوله :

خبرت زعامات البلاد فلم أجد سواك على دين الوفاء يقيم
تصون إخاء الشعب رغم تنابذ وماكل يوم للبلاد زعيم»(١)

ونحن لانرى سببا يجعل المعارك السياسية ، والفنية الأدبية تتداخل أو أن تكون إحداهما سببا فى الأخرى لكن المعروف هو أن — الأدب والفن كليهما ظواهر لمرحلة سياسية ، واجتماعية ، وإرهاص فى الوقت نفسه بحياة أخرى جديدة . فمن المستبعد مع هذا أن تنشأ الروابط والاتجاهات الأدبية ، والفنية بقرار سياسى ، أو استجابة لرغبة سامية ونحن نرى كثيراً من « المحافل الأدبية » ، « والروابط الفكرية » ماتت فى مهدها لمجرد أن الحكومات حاولت تجنيدها ، أو احتضانها ، أو حولتها عن وظيفتها الحقيقية إلى عمل إعلامى .

---

(١) د . محمد مندور : الشعر المصرى بعد شوقى ص ٦٧ — ٦٨ .

فجماعة أبوللو قامت استجابة لروح المرحلة وبأثر من آثارها الفكرية والاجتماعية شأن كل الحركات الفكرية والفنية الأخرى ، تألفت — أذن — هذه الجماعة فى أجواء — اجتماعية وإنسانية — بالغة القسوة ، واليأس فحاولت أن تحقق نوعا من الحب الإنسانى ، والتآلف الاجتماعى ، والتعاون الجمالى بين الشعراء خدمة للفن الأصيل وترفعاً عن الإسفاف الشعرى على موائد السياسة ، وزعمائها وتكريما للشعر وشعرائه .وإبرازاً لدور الشخصية المصرية .

وهكذا ، وعلى الرغم من قسوة الحياة سياسية ،واقتصادية واجتماعية فإن الحياة الأدبية قد ازدهرت عبر المرحلة الممتدة من ثورة سنة ١٩١٩ حتى بداية الحرب الثانية ، وماجب بالتيارات ، واصطخبت بالشعراء من كل اتجاه التقليدى المحـــافظ شكلا وموضوعا أو العصرى فى القضايا الاجتماعية والإنسانية ، والسياسية التى تنمى الحس القومى ، والوطنى ، وتقوى روح النضال ضد الاستعمار ،وتستعيد التراث تمجد فيه الماضى ، وتنظر إلى المستقبل فى إعجاب وزهو ، وأمل ، وتنجذب إلى الحاضر تصف روائعه ، أو شاعر يهتف من أعماقه هتافاً إيمانياً ينير به الطريق ويمتح من معين النفس الصافية فيغذو القلوب ، والأرواح لتهدأ السرائر ،وتنجاب الظلمات ، ويثق الناس فى العدل الإلهى والحل الدينى ، أو شاعر رومانسى تعالى عن واقعه ، واندمج فى دنيا خياله يعتصر صور عذاباته ، واغترابه النفسى ، والاجتماعى .

وكان أبرز ما استهدفته « جماعة أبوللـــو » هى أنها اهتمت بالشعر رسالتها الأولى ، وقصدت إلى تربية الذوق واستهدفت تقديم النموذج الشعرى المختار ، ومن هنا كانت رسالتها فنية ووسيلتها

نشر الشعر الصافى فجاءت مجلتها مجالا لنشر الشعر الرائع والصور الجميلة ، واللفظ المونق الرشيق .

و بين يدى هذه المدارس ، وفى أحضان بيئاتها الفنية وبأثر من عواملها تتفتح شاعرية « فؤاد شهاب الدين » الذى عشق الشعر والمرأة كما لم يعشقهما أحد فكانت القصيدة محبوبته الأثيرة والمرأة عشقه الأوحد ، والطبيعة موطن تأملاته ، وموئل آماله ، ومسرح آرائه ، ونوازعه الإنسانية و الجمالية . فمما لا شك فيه أن الشاعر بهذه الخلفية الرومانسية قد استهواه ذلك التيار فانبثق شعاع رؤيته فى شعر جهد وعرق ، وتفصد جبينه كى يقدمه فى مجتمعه الريفى تعبيراً عن طبيعة المجتمع ، واستلهاما فنياً للتيار المتسلسل فى شلالات الضوء الغامر إرهاصاً بالمستقبل الرومانسى الذى ينبثق من نواحيه التدفق الوطنى ، و تولد على عتباته الشخصية المصرية وبلغة بسيطة يعكس التجربة الإنسانية التى هوم فيها كثيراً شأنه فى هذا شأن شعراء الرومانسيين بموجاتهم العذرية ، والصوفية ، والإنسانية .

فإلى لقاء معه .